SALIM BARAKAT

رواية
NOVEL

سليم بركات

موتى مبتدئون



موتى
مبتدئون

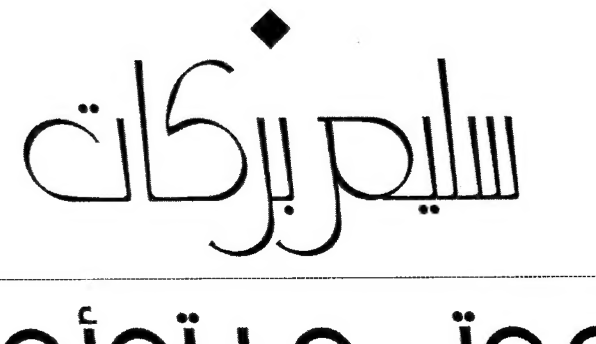
موتى مبتدئون / رواية عربيّة
سليم بركات / مؤلّف من سوريّة
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
خطوط الغلاف :
زهير أبو شايب / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ :
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-828-7





كلُّ شيءٍ افتراض
حينَ يكونُ الموتى مبتدئين



السنجاب، بعد أربع قفزات

توقف السنجاب البنيُّ ، بعد أربع قفزاتٍ محسوبة بالدِّقة التي يُمليها الخوفُ ، تحت شجرة الكستنة الضخمة . دار من حول جذعها العريق نصف دورةٍ يمكِّنُ وثْبتَه من اندفاعتها القصوى . لولبياً تسلق الجذعَ . حمله غصنٌ إلى غصنٍ ، طبقةً بعد أخرى ، في اتجاه الأعالي ، فتناثرت حفناتٌ من الثلجِ العالق بها - ثلجِ المشورة التي دَرَج البياضُ على إسدائها للخلاءِ الموحش . استأذن السنجابُ شجرةَ الكستنة إذْ بلغ ذروةَ فضائها الفارغ ، قافزاً في اتجاه شجرة الصنوبر . حطَّ عليها في خفَّةٍ كفكرةٍ ارتجلَها أملٌ عابر .

لمس نصلُ السهم القصير ذيلَ السنجاب ، وأكملَ صفيرَهُ يائساً . ضرب ماسِيْلْدِي كتفَ غِيْرْمُوهالي بقفازه عاتباً : «أخطأت قوسُك الفولاذُ الرميةَ مرتين ، اليوم . في معدنها شيءٌ من ذرْق البوم» .

استدار الشابان المتلفِّعان بمعطفين من فراء الثعالب الرمادية ، عائدَيْن إلى أقرانهما الجالسيْنَ تحت عريشة من الأغصان المشتبكة بَدَتْ كغارٍ مسقوف بركامٍ من الثلج .

«أحلم بشواءٍ» ، قالت دَاهْناليدا الحمراء الأنف من تحت لثامها . أخرجت يدها اليمنى من القفاز الأسود ، ومرَّرتها ، عبر اللهب المشتعل في كومة الغصون ، بضع مرات . شدَّتْ نِيْدِيْدَادْ ، حاملةُ لقبِ الغيمةِ ، يدَ داهناليدا : «أنتِ تحرقينها» . شمَّت داهناليدا يدَها الدافئةَ : « أحلم بشواء حتى لو كان من لحمي» ، ورفعت وجهها إلى القادميْن في خيبة : «سنأكل الشيطانَ المدَّخن هذا إلى الأبد» ، أخرجت من جرابها قطعةً من لحم الرَّنَّة المسودِّ اليابس .

رمى غيرموهالي قوسَه الفولاذَ إلى الثلج فانغرزت فيه عميقاً . جلس على زحافة من التي حملوا عليها حوائجهم : «ماذا نفعل هنا؟» ، قال من فم سطَّر بالبخار تذمُّرَه على الهواء .

«ألا ترى الأمرَ ممتعاً؟» ، ساءله جِيْمَاتِيْرْك ، وهو يمدُّ عصا في رأسها قطعة من السَّمك المدخَّن صوب اللهب .

«ماالممتع في الأمر؟ منذ بدء مسيرنا ، قبل ستة أيام ، لم نلتق أحداً بعد» ، قال غيرموهالي . رماه رَامُوْسِيْراسْمُو بحبة كستنة : «إن لم نلتق أحداً حتى الآن ، فالأرجح سنلتقي بكثيرين في خليج مورتفيك . سيغدو الأمرُ ممتعاً آنذاك ، ياغيرموهالي وأنت تسلِّي الصيادين العابقة معاطفُهم بزَنَخ ريش البط» .

نهضت دَاهْنَالِيْدا الطويلة عن زحافتها المغطاة بجلد الأيلِ - ربيبِ غابة القِيْقَب . اقتربت من النار : «ماذا نفعل إن لم نلتقِ أحداً؟ تنكمش رئتاي هَلَعاً من فكرتي هذه . أمام مَنْ أدرِّب نفسي على طيشٍ بلا حدود ؛ أن أكون امرأة صاعقةً تفاجىء نَفْسَها بالـ . .» .

«بي ، ياداهناليدا المعصوبة العينين» ، قال جيماتيرك مُقاطعاً . ابتسم لها : «درِّبي نفسَك أمامي على ماتشائين . أنا مهيَّأٌ أن أكون صاعقاً بدوري ؛ أن أكون فكرتَك أنتِ عن الغريب . ألم نجشِّم أنفسنا كل هذا العناء لنلتقي غريباً نسليه؟» .

«مَنْ منا خطرت بباله فكرةُ التسوُّل هذه؟» ، قال ماسيليدي .

«أتسمِّي لعبتنا النبيلةَ تسوُّلاً ، ياشبحَ الزنبق ماسيليدي؟» ، ساءله جيماتيرك ، فانبرت له داهناليدا ، المطوَّقة الرأس ، تحت الخِمار الجلد ، بعُصابة كالقناع ، تبرز عن ثقبين فيها عيناها المجلَّلتان برموش شديدة الشقرة : «هذه ليست فكرةَ تسوُّل ياماسيليدي - شبح الزنبق ، وليست لعبة ، يامحيِّر شجر القيقب جيماتيرك ، بل هِبة ألزمْنا أنفسنا بها ، قبل خروجنا من أرضِ السَّحلبية الزرقاء - زهرةِ المغيب الناقص . قلنا : سنفاجىء أنفسنا أمام أول غريب نلتقيه بما يمكن أن نستحضر له من تسلية لم نعرف ، قبلاً ، أيَّ اقتدارٍ عليها أمام أحدٍ آخر» .

«تزعمين ، ياداهناليدا المعصوبةَ العينين ، أنك ستستخرجين الطيشَ العاصفَ ، الذي فيك ، إنِ التقيتِ غريباً . ستنفِّرينه . ستجفلينه . لن تكون المسألة تسليةً» ، قال غيرموهالي ، فردت

داهناليدا : «لست معصوبة العينين . هذا قناعي أتَّقي به وهجَ الثلج ، ولألأتَه المُعشيةَ ، يانَفَس الأيل في المغيب ـ غيرموهالي . لقد زعمتُ أنْ سأكونُ طائشةً ، عاصفةً . قد لا يحدث الأمر هكذا . ربما أكون أكثر خجلاً أمام الغريب ، أكثر رقَّة ؛ خاضعةً ، أُمَكِّنه من استحواذ خياله على خيالي . لم يلتق أحدُنا غريباً من قبل» .

خلع راموسيراسمو ، الضخم الهيكل ، قفازيه المنسوجين من وَبر كلب الجليد . حَسَر عن رأسه غطاءَه الجلدَ ، وقضم حبةَ كستنة بأسنانه القوية مع قشرها : «هل الغرباء مُلْهِمون إلى هذا الحدّ؟ مَنْ يُشبه الغريبُ؟» ، قال بصوتٍ نائم ، فردَّت نيديداد :

ـ يشبه الغريبُ غريباً مثله .

تأجَّج اللهبُ إذ نكتَهُ جيماتيرك بعصاه الرفيعة . تمتم : «بدأنا نفاجىء أنفسنا بغريب لم نلتقِه بعد» . تلفت بعينيه على جهات الغابة العريقة ، ذات الممرات المؤجَّلة إلى فصولٍ لا ثلج فيها : «يشبه الغريبُ غريباً مثله ، أيتها الغيمةُ في الشروق ـ نيديداد» .

نزل سنجابٌ رماديٌّ ، في هدوءٍ ، عن جذع شجرة صنوبر ، على بُعد أذرع قليلة من زُحافاتِ القافلة الصغيرة . تأمَّلهم بعينيه ـ عينيِّ العقل المَرِح . لمس ماسيليدي بقدمه قَدَم غيرموهالي : «أين قوسُك الفولاذية؟» .

جال غيرموهالي ـ نفسُ الأيِّل في المغيبِ ـ بعينيه على الثلج من حوله بلامبالاة . عاد ببصره إلى الحيوان الصغير ذي الذيل الطائش

كـعـذوبةٍ : «هذا السنجـاب ذاهبٌ إلى عـرس» ، قـال . ضـحك راموسيراسمو : «بدأ خيالُك ينجب التوائم» . نظر إلى الآخرين : «ألنْ يكون مسليّاً أن يحدِّث غيرموهالي أول غريب يلتقيه عن سنجابٍ ذاهبٍ إلى عرس؟ . أنت تدرِّب نَفْسَك يانَفَس الأيل في المغيب» . قذفَ السنجابَ بحبة كستنة متمتماً : «غيرموهالي يسبقنا» .

اندفع السنجاب كزفيرٍ من رئة الثلج إلى أعالي شجرة الصنوبر ، مُلقياً شتائم من خلفه بحروف من لغة الغابة .

«أسمعتموه؟ أسمعتم ماقاله السنجاب؟» ، نطقت داهناليدا بصوتٍ خفيض . لمست براحتها فخذ نيديداد الجالسة لصقها : «بمَ نسلِّي غرباءً إذا التقيناهم؟» .

«نغني لهم» ، قال ماسيليدي .

«أليس الأفضل ، ياصاحب الصوت المطحون ماسيليدي ، أن نختلقَ قصصاً؟» ، قال جيماتيرك . حدَّق إلى داهناليدا : «أو أن ترقص لهم المعصوبةُ العينين؟» .

«لا غناء . لا قصص . لا رقص . لم نفكِّر بفكرتنا إلاَّ كهبة .دعوا التسليةَ تحضر طوعاً ، فيما بعد . سيكون الأمرُ إلهاما بحضور الغريب» ، قال راموسيراسمو . «أحضِروا . .» ، ورمى بحفنة الكستنة التي في يده بعيداً إلى الفراغ الأبيض . تكلَّم ثانيةً : «أحضِروا غرباءً معصوبي الأعين ، تدهشونهم حين يفتحونها عليكم . نادوهم بلسان خيالكم . ابتكروهم . ذكِّروهم بأسمائهم إنْ نسوا أسماءَهم» .

انزلقت كومةٌ كبيرة من الثلج عن عريشة أغصان الصنوبر المشتبكة . نزلت ، بتقدير دقيقٍ من يد الخفيِّ ، على الحطب المشتعل . اختلط الدخان المنبعث من الجمر المختنق بشتائم مقذوفة في الإتجاهات كلِّها .

المدية والمبرد

شحذ الرجل الجالس على جذع شجرةٍ مهشَّم ، قبالة المياه في خليج أُوْدِنْ ، مِدْيَتَهُ العريضة الشفرة على مبردٍ حجرٍ مضلَّع . نطق المعدنُ في احتكاكه بالمعدن ، فأصغى قلبُ الرجل إلى حكمة اللسان الصلب .

ثلاثة عشر طيراً من قبائل البط ، المطوَّق العنق ببهاءٍ أصفر ، عبرتِ البرزخَ الثلجَ إلى البرزخِ المياهِ كقوارب من ريش . مسَّها الرجلُ ببصره ؛ مسٌّ ببصره الدوائرَ المتداخلةَ على السطح الرماديِّ الساكن . تأمَّلَ البعيدَ المُعْتَصَر في قبضة الأفق المُعْتَصَر تحت ثقل السماء . أغمض عينيه . تحركت شفرةُ المدية ، ثانيةً ، على المبرد ، فأصغى المجهولُ ، بعقله الذهبيِّ ، إلى الهسيس المرتعش في خيال المعدن .

نهض الرجلُ عن الجذع المهشَّم ليستعرض على نفسه المكانَ

تفصيلاً بعد آخر : الجذوعَ العتيقةَ الهرمة ، والثلجَ المتغلغل ، بجسارةٍ ، في المياه ، والغابةَ المؤتَلِفةَ من خلفه ، بأُم أشجارها العارية منها والمكتسية . تقدم خطواتٍ بلاهدف ، ثم انكفأ . حدَّق إلى المدية ، فالمبرد ، متفحِّصاً أمرَ وجودهما في يديه ، باستفسار أخرس . جلس على الجذع المهشم ، من جديد . علا هسيسُ احتكاك المعدنِ الحديدِ بالمعدن الحجرِ .

رقيقةً تمايلت نُدَف الثلج في نزولها . أُسْدِل الحجابُ الشفيف بإيماءة البياض إلى مريده الخفيِّ . رفع الرجل وجهه ناظراً إلى البطِّ المفتَّت الصور وراء الحجاب . ذابتْ جسومها في سطرٍ متَّصل من حروف بلا فواصل . انتزعتْه رعشةٌ خفيفة من تأمُّله في الأشكال . ردَّ خِمارَه الجلدَ ، من خلف رقبته ، على رأسه الأبيض : «أيها البط ، ألا تريد أن تسألني شيئاً وأنت تقتحم الماءَ من جهتي التي لي؟» . ابتسم ابتسامةً مُرْهَقَة كخياله . وضع المبردَ الحجر في جيب معطفِه الجلدِ السميك الخشن ، وأغمد نصل مديته في الجذع الجالس عليه . حرَّر يديه من أحوال الوصف المتتابع للحركة بكلمات الهسيس على لسان المعدن . تكلَّم بانكسارٍ : « أيُّ مكانٍ يقود نَفْسَه إليَّ؟ لاأتذكر شيئاً أيها الثلج . لاأتذكر شيئاً أيتها المياه . لستُ ماثلاً أمامي . باردٌ كلُّ شيء ، لكنه بردٌ يستعطفني أن أشفق عليه . ليكنْ : سيدي ، أيها البرد ، خُذْ من ذاكرتي ماتشاء ؛ خذْ خواءَها» . وضع يديه تحت إبطيه . طوَّق الفراغَ الساحقَ العريق بصوتٍ فراغٍ : «هذا البياض الذي

حولي متردِّد ، زاهدٌ ، والمياهُ تُقحمني في شؤون لستُ على عجلة في تأكيدها . لستُ قوياً ، ولستُ ضعيفاً أيضاً» . نهض عن الجذع المهشم . تقدَّم صوب المياه بخطوات تجرح الثلجَ : «أأنا أخون ذاكرتي ، أمْ تتصنَّع ذاكرتي أنني أخونها؟ كلُّ ماأعرف أنها لا تملكني ، ولا أملكها ، فلا أشغلنَّ نفسي ، إذاً ، بأن يخونني مالا يملكني ، وأن أخون مالا أملك» . وضع يديه في جيبي معطفه العاليين ، على جهتَيْ قفص صدره . قرفص يتأمل سربَ البط . تمتم : «أأنا شتاتُ خيالي ، أمْ شتاتُ أملي في خيالٍ مصيبٍ على نحوٍ عنيد ، أو مخطىء على نحو عنيد؟ . لن أعطي ذاكرتي ماتريد منّي الآن ، ولا أريد أن تعطيني ماأريد منها الآن . فلأقفْ على جانبٍ ، ولتقف ذاكرتي على جانب آخر ، في خليج أوْدِن» .

شدَّ لفائف القماش المجدولة على ساق حذائه الجلد وقايةً . استقامَ . نفض ندائفَ الثلج عن كتفيه ، وهو يرى سرب البط عائداً إلى الشاطىء الأبيض ، وديعاً في حركته المتمايلة . سمع صفيراً . تخبطت بطةٌ مرتين ثم خمدتْ . انذعرتِ الأُخرياتُ . قوقأتْ قوقأةَ المُباغَتِ المُجْفَل . عطْعَطتْ ، وعجَّتْ . ضربت الأجنحةُ الثلجَ تتوسَّله أن يطير بها . دارت عائدةً إلى المياه . اقتحمتْها موغلةً في الفراغ الأمين .

خرج غيرموهالي من وراء اللفيف المثقل الأغصان بالثلج . قهقهَ : «انظرْ ياشبحَ الزنبق ـ ماسيليدي . ليس في معدن هذا السهم شائبةٌ

من ذرق البوم» . حرثَ البياضَ بقدميه مهرولاً صوب البطةِ ـ طيرِ الحُجُب المائية في راهنِ الجوهر . راعَهُ شخص الرجل المرهَق العينين واقفاً على بُعْدٍ . توقَّف يزِنُه بميزان بصره . جاوره ماسيليدي ، الذي أدار وجهه إلى حيث ينظر غيرموهالي : «أهذا غريبٌ؟» ، قال بنبرةٍ مستثارةٍ . أعاد ترتيب الكلمات على صفحة صوته . نادى : «أأنت غريب ، أيها الرجل؟» .

لم ينطق الرجل المرهَق العينين . استدار عائداً إلى الجذع المهشم . جلس عليه . أخرج المبردَ الحجرَ من جيبه . سلَّ المديةَ المغروزة في الشجرة الميتة . سنَّ شفرتَها ، بتؤدةٍ لامباليةٍ ، فَعَلا هسيسٌ نشيدٌ ، مُرْهَقٌ كخياله .

طيورُ القُرْقُف

تصايحت طيور القُرْقُف الصغيرة ، لاهيةً ، في أعالي الغصون . طارت شموساً ، صغيرةً ، خفية ، مختبئة في أكواز الصنوبر الميتة ، المتشبثة بالحياة في عبورها البارد . أعارتِ الشجرَ خيالها ، واستعارت خيالَ الشجر ، ثم طارت مبتعدة إذ عَلَتْ جَلبةُ القادميْن بزحافاتهم محتشديْن أمام الجذع المهشم ، حيث يجلس الرجل المُرهَق العينين . طوّقوه في نصف دائرة ، والتهموه بأسنان الشوق الجائع إلى غريبٍ .

«هل سألتماه مَنْ يكون؟» . ساءلت داهناليدا رفيقيها غيرموهالي ، وماسيليدي ، اللذين سَبَقا الآخرين إليه . تمتما كلماتٍ مكسورةً تُنبىءُ بانهزامهما أمام لامبالاته المُسْرِفة ، وهو عاكف على سَنِّ مديته .

«أهو غريب؟» ، تساءل جيماتِرك حامل العصا الرفيعة .

«هكذا يبدو» ، قالت نيديداد الممتلئة في عباءتِها الفِراء .

اقــتــربت داهناليــدا الطويلة ، ذات القناع الرقــيق ، الذي يقي عينيها ، الزرقاوين إلى صُفرةٍ ، من وهج البياض . حدَّقت إليه تتوسَّله أن لا يخون توقُّعَها : «سأقتل نفسي إذا لم يكن غريباً» .

جذبها ماسيليدي القصير قليلاً برقة . فتح فمه عن أسنان انكسرت إحدى ثنيَّاتها العليا ، ونفخ بخاراً على عينيها : «أفيقي ، أيتها المعصوبة العينين ، هدوؤه لايُنبىء أنه غريب» .

«أنت تُحبِطني ، ياشبح الزنبق» ، قالت الشابة الطويلة ، فردَّ ماسيليدي الحليق الوجه : «بل أوفِّر عليكِ الخيبة . قد لا يكون الرجلُ هذا ، في بساطةٍ ، غريباً» .

جاورتْ نيديداد الجذعَ المهشم ، عن يمين الرجل المُرهق العينين . جلست عليه بهدوء . تأمَّلتْ وجهَهُ المُطْرِقَ . حَسَرت القُفازَ عن يدها اليسرى . مدَّت أناملها الرقيقة حتى لامست شفرةَ المدية المتحرِّكة ، ذهاباً وإياباً ، على المبردِ الحجرِ . توقف الرجل عن سنِّ مديته من غير أن يستدير بوجهه إليها . تمتمت الشابة ـ الغيمةُ في الشروق : «أنحن نتطفل عليك ، أيها الغريب؟» .

شقَّ رامـوسـيـراسـمـو ، الضـخم ، ذو الأنف الأقنى ، السـتـارَ اللامرئيَّ ، بيديه ، اعتراضاً بلا صخب : «لم نرَ غريباً من قبل ، أيتها الغيمة في الشروق ـ نيديداد ، فلماذا تنادينه بلقب الغريب؟» .

انبرى جيماتِيرك النحيل متحدثاً بلسان الكَشْف : «انظرْ إلى

مديته العريضة الشفرة ، يانكهةَ طحين الأرز ـ راموسيراسمو . هي ليست من صناعة أرض سْكُوْغُوْس ـ إقليم العبث المعتدل» .

لم يأبه راموسيراسمو لكشْفِ جيماتِيرك . قرفصَ أمام الرجل المرهَق العينين ، فوق الثلج ، يختلس النظرَ إلى وجهه تحتَ الخِمار الجلدِ : «لماذا تتصنَّع هذا الهدوء الكثيف المتشابك ، الثقيل ، الثقيل؟ ألا يكفي ستة مثلنا ، بزُحافاتهم ، وصخبهم ، أن يحملوا ثقلَ هدوئك عنك ، أو يرغموه على أن يُفسح لنا مكاناً فيه كضيوفٍ؟» . اعتصرَ حفنةً من الثلج فتكوَّرتْ . مسح بها شفتيه . «لو أن لهدوئك ، أيها السيد الصامت ، قدمين ، لدغدغتُ باطنيهما» . ابتسم . ألقى نظرةً من خلف كتفه إلى صَحبه . غمزهم مؤكداً ظرافةَ دُعابته .

«هذا رجلٌ ماءٌ» ، قالت داهناليدا الكبيرةُ الأسنان . ضحك ماسيليدي : «هو ماءٌ ، وهدوؤه زيتٌ . سيختنق» ، قال ، آملاً أن يُستثار الرجلُ المُرهَق العينين من لَمْزِهما له ، فاستُثير جيماتِيرك : «بل هو زيتٌ ، ونحن الماء . سنختنق» .

نهض راموسيراسمو في خيبة . حدق إلى الرجل الجالس على الجذع المهشم . حاول ، على نحوٍ غير مُتْقَن ، أن يفتح ثغرةً ما في الهبوب الغامض . سلَّ مديتَه الكبيرة كالساطور . قدَّمها ، منحنياً ، إليه : «اشحذْها لي» .

«لا تعابثْه هكذا ، ياطحين الأرزِّ» ، قال غيرموهالي ذو اللحية الكثة الشقراء ، وهو ينحِّي صاحبَه الضخمَ ، الأقنى الأنف . رفع البطةَ

القتيلة ، من قدميها ، أمام وجه الرجل المُرْهَق العينين : «أأنت جائع؟» . دار ببصره على صِحابه : «منذ البارحة لم أحسَّ بجوع . أجزمُ أنْ لستم جائعين أيضاً . مامن أحد منكم تحدث عن طعام منذ البارحة» . تأمَّل البطة في عتابٍ على نَفْسه : «أكان ينبغي أن تكوني هنا ، اليوم ، ياطيرَ الحُجُب المائية؟» . وضعها على الجذع المهشم ، إلى جوار الرجل الجالس .

لمست داهناليدا ذراعَ غيرموهالي . سدَّدت إليه كلماتِ النظر المُسْتَدْرِك : «لا أرى متاعاً مع هذا الغريب» ، فردَّ صاحب القوسِ الفولاذِ ذات الزناد : «لا يحضر الغرباءُ متاعاً معهم» .

«من أين لك كشفُك العجولُ ، يانَفَس الأيل في المغيب - غيرموهالي؟ الغرباء ، أيضاً ، يصحبون متاعَهم مثلنا» ، قال جيماتيرك ذو الأنف الطويل - أنفِ القسمةِ المتقاربة بين العامَّة في أرضِ السَّحلبيَّة الزرقاء .

«أرأيتَ غرباء ، من قبل ، حتى تزعم أنهم يصحبون متاعاً ، يامحيِّر شجر القيقب - جيماتيرك؟» ، ساءله غيرموهالي ، فرد جيماتيرك : «أَوَرأيتَ ، أنتَ ، غرباء ، من قبل ، حتى تزعم أنهم لا يصحبون متاعاً ، يانَفَس الأيل في المغيب؟» .

جرَّت نيديداد الممتلئة زحافتها حتى صدمت الجذعَ المهشم . جلست على الزحافة متثاقلةَ الجسد والكلمات : «لكُما ، معاً ، خمسُ خُصى» ، قالت ، فضيَّق غيرموهالي بين أجفانه مستنكراً : «أيُّ لسانٍ

أيقظ كلماتكِ هذه ، أيتها الغيمة في الشروق ـ نيديداد؟» .

«أيقظت كلماتي خصيةُ المنطق الخامسةُ في جدالكما ، ياغيرموهالي ، وجيماتيرك . انظرا إلى الرجل بعين المكان : مَنْ لايحمل معه متاعاً يكُنْ من الجوار ، في الأرجح . ربما يقيم في مسكن خلف لفيف الشجر ذاك» ، وأشارت إلى الجهة الشمالية من الخليج .

ساد هدوءٌ متفحِّصٌ . فكَّر المكانُ في نَفْسه ، قليلاً ، بعقلِ الإشارات في أعين الجَمْع الصغير وهم يحدِّقون إلى المجهول الأبيض متدحرجاً من خيال الشجر إلى الخليج . تنفَّس البردُ . تنفَّستِ المياه .

جرَّ الصحابُ زحافاتهم ، تباعاً ، يرصفونها نصف حلقة أمام الجذع المهشم . جلس كلٌّ على زحافته مستريحاً . عبرتْ نسمةُ هواء قلَّبت ستَّ ريشاتٍ في جسد البطة القتيلة ، ثم خمدتْ النسمةُ فعادت الريشاتُ إلى نومها .

«أأنت من خليج مورتفيك ، أيها السيد الصامت؟» . ساءل ماسيليدي الرجلَ المُرهق العينين . حدَّجه راموسيراسمو بنظرة ضيِّقة المعنى : «أتنتظر ردّاً ، أمْ تدرِّب لسانَك على الخواء ، ياشبح الزنبق؟» ، فاحتدم ماسيليدي : «ولماذا نجلس أمامه ، إذاً؟ لماذا لا نمضي؟» .

«لم يحسم الرجلُ أمره ، بعد . هذا مايُبقينا هنا» ، قالت داهناليدا .

«فيمَ يحسم أمرَه ، يامعصوبةَ العينين؟» ، ساءلها جيماتيرك

متأفِّفَ اللسان ، فرمتْه الفتاةُ الطويلة بحفنة ثلج : «هذا قناع ، وليس عُصابة . عيناي مفتوحتان ، يامحيِّر شجر القيقب» .

«أهما مفتوحتان حقّاً؟ أيُّ أمرٍ ترَيْنَه خليقاً بالحَسْم حتى يحسمه هذا الرجل؟ أمره هو ، أم أمرنا نحن؟» ، ساءلها جيماتيرك وهو ينفض عن صدره مارمتْه به من ثلج . تدخَّل غيرموهالي : «أظن داهناليدا على حقٍّ . على الرجل الجالس على الجذع أن يحسم أمره» .

«فيمَ يحسم أمره ، ياغيرموهالي؟» ، قال جيماتِيرك باستغراب ، فردَّ صاحب القوس الفولاذية :

«أن يخبرنا ، بأية إشارة يريدها ، أهو غريبٌ ، أمْ من الجوار» .

«لن يردَّ» ، قالت نيديداد الممتلئة ، وهي تتمدَّد ، بطولها ، على الزحافة .

«ربما علينا تدبير ماندرِّب به خيالنا على هذا الموقف ، حتى يحسم أمرَه ، ويردَّ . فلْننتظر» . قال غيرموهالي . سلَّ مديته الضخمة كساطور من حزامه ، وأغمدها في الثلج إلى مقبضها المغلَّف بالجلد . سُمعَ هسيسُ حديدها غائراً في البياض الفاتك .

اثنا عشر طيراً من أمَّة البط ، المطوَّق العنق ببهاءٍ أصفر ، عبرتِ البرزخَ المياهَ إلى البرزخِ اليابسةِ . صعدتْ كثيباً من الثلج رفعتْه مساربُ الهواء فوق الهشيم المجتمع في مضيق صغير من ضفة الخليج . اصطفت سطراً لوناً بأربع وعشرين عينا ، تمزج السماء بالأرض في حرف واحد من حروف الوعيد . توقف الرجل المرهق العينين عن سَنٍّ

مـديتـه . رفع وجـهـه ، في ثقل ، إلى سطر البط في لوح الكثـيب الأبيض . تنبَّه الجالسون أمامه ، على زحافاتهم ، إلى حركته ، فاستداروا بوجوههم إلى حيث ألقى بصرَه . تكلَّم ماسيليدي : «بطٌّ حزين . يلقي النظرةَ الأخيرةَ على رفيقته القتيلة» ، قال ، والتفت إلى صاحب القوس : «إنه يتهدَّدُك يانَفَس الأيل في المغيب - غيرموهالي» .

نهض غيرموهالي الطويل ، المتقوس الهيكل قليلاً . رفع البطة القتيلة عن الجذع المهشم ، من ساقيها ، ومشى في اتجاه كثيب الثلج : «تعالي ياعقولَ الماء المُلفَّقةَ ؛ أيتها الطيور الشاهدة على هذه النكبة النبيلة . تعالي» ، قال . انفرط سطرُ البط جُمَلاً تداخلتْ . حركتْ أذيالها القصيرةَ منحدرةً إلى الجهة الأخرى من حجاب البياض ، خلف الكثيب . توقف غيرموهالي . جثا على الثلج . حفر حفرةً ودفن البطة القتيلة . عاد إلى صحابه . تكلمت نيديداد المتمددة بطولها على الزحافة : «النظرة الأخيرة من كائن على كائن أمرٌ محيِّر» .

«لاحيرةَ . لا أمرٌ محيِّر . النظرة الأخيرة نظرة مشوَّشة ، لذلك هي أخيرة» ، قال راموسيراسمو .

«بدأتما تسليانني» ، قالت داهناليدا . وضعت راحتها على الجذع المهشم : «هذه بداية طيبة لتسلية الغريب ، أيضاً» . سحبت راحتها بتمهُّل وهي تجرف بعض الثلج . تمتمت : «كل ختام أمرٌ مشوَّش» . رماها جيماتيرك بأحد قُفازيه مُدَاعباً . فرك يده بالأخرى : «النظرة

الأخيرة مشوشة . الختام مشوَّش . أي ختام تعنين ، يافتاة القناع؟» .
التفت إلى غيرموهالي : «لماذا هي عقول الماء الملفَّقة يانَفَس الأيل في المغيب؟» ، قال مشيراً بيده إلى حيث كانت تقف طيورُ البط .

«إننا نتدرَّب ، الآن ، على الكمال» ، قال غيرموهالي ، فاعترض جيماتيرك كلماتِ صاحبه . تلقَّفها في الهواء وفَرَكها : «على الكمال؟؟؟» . شهق شهيقاً خفيفاً . خلع قفازه الآخر ورماه إلى فراغ الأعالي : «لا تعدْ إليَّ أيها القفاز ، حتى ينجز غيرموهالي تدريبَ خيالنا على الكمال» . تمدَّد على الثلج مستريحاً : «أيُّ كمال ، يانَفَس الأيل في المغيب؟» ، قال بصوتٍ يتصنَّع الشهوة .

«الكمال في أن نكون مُقْنِعيْنَ ، يامحيِّر شجر القيقب» ، رد غيرموهالي .

«الإقناع؟!!» ، ساءله جيماتيرك متعضاً . تأمله ، ثم استرسل : «أأصغيتَ إلى نيديداد ، وداهناليدا ، وإليك؟ النظرةُ الأخيرةُ من كائن على كائن أمر محيِّر؟! النظرة الأخيرة نظرة مشوَّشة؟! الختامُ أمرٌ مشوَّش؟! البطُّ عقول الماء الملفَّقة؟! أأصغيت إلى كل هذا ، يانفس الأيل في المغيب؟! . لا تستطيع إقناعَ . . .» . قاطعتْهُ نيديداد ، وهي ترميه ، في استلقائها على الزحافة ، بكرة ثلج : «أنت تحبطُنا . أنت لا تريد بدايةً» ، قالت ، ثم أغمضت عينيها البنِّيتين ، الكبيرتين . استنكر جيماتيرك هبوبَها عليه :

ـ بل أريد بدايةً .

داهمَهُ غيرموهالي بهبوبه عليه : «فلتكن البدايةُ تدريباً مشوَّشاً على الإقناع ، إذاً . ماذا تخسر يامحيِّر شجر القيقب؟» .

«أخسرُ؟ في الأرجح ليس هناك ماأخسره مُذْ وهبتُ رحلتي ، هذه ، للأمل في تسلية غريب» ، رد جيماتيرك . حدَّق إلى الرجل المرهق العينين مُنْكبّاً على سَنِّ مديته : «هو ، نَفْسُه ، يتدرب على كمالٍ مشوَّشٍ ، مختلطٍ» . صمتَ . أشرقت فكرةٌ على خياله : «ألم يخطر ببال أحدكم أن هذا الغريب يحاول ، على نحوٍ لا نفهمه ، تسليةَ عابريْنَ مثلنا؟» . دار ببصره على وجوه صحابه فألفاهم غير آبهين بالشعاع الخامل في كلماته . شتمَ الوجودَ المشدودَ والمترهِّلَ معاً : «سأشرب عظام هذا الغريب مطحونةً في نبيذٍ رديء إذا استرسل في تجاهل حضورنا» . تقدَّم من الرجل المرهق العينين . وقف بإزائه : «كنْ إلهامنا في أن نبتكر لك مايسليكَ . لا نتطفَّل عليك . لا نريد شيئاً . إشحذْ مديتَك قَدْرَ ماتريد . سنعينك ، نحن ، واحداً واحداً ، على شحْذِها إنْ أردتَ . هاتِها» . مدَّ يده صوب المدية . مسَّها . رفع الرجل المرهق العينين رأسه مُجْفلاً فانسلتَ خمارُه الجلدُ عن شعره الأبيض . شدَّ راحتيه على المدية والمبردِ الحجرِ . بدا وجهه الحليق شاحباً قليلاً بحاجبيه الرماديين ، وفمه المُطْبَق الشفتين بصرامة .

«لقد أجفلْتَه ، ياجيماتيرك» ، قال راموسيراسمو باستياء .

«ألا تراني أحاول استدراج هذا الغريب إلينا ، من جليد لامبالاته ، فيما أنتم مراقبون لا أكثر ، ياطحينَ الأرز؟ فليحاول أحدكم

شيئاً ، أو فلنمضِ إلى خليج مورتفيك» ، قال جيماتيرك مُعاتِباً . عاد إلى زحافته فتمدد عليها متكئاً برأسه على ذراعه المطوية .

دار الرجل المرهقُ العينين ببصره على وجوههم . حاصرَ داهناليدا المتقنِّعة . تفرَّستِ الفتاةُ فيه من خَلَل رموشها الشديدة الشقرة . نطق لسانُ أعماقها بالمناجاة . كلَّمتْه بسريرتها : «أأخلع عني معطفي كي تراني أكثر ، أيها الغريب؟ عينان مجهدتان كعينيك تبعثران ذاكرتي ، كأنك مرتابٌ في أنني أعرف بعض الخفيِّ الذي فيك . جميلة أنا ، دون معطف ، أيها الغريب . جميلة بذاكرةٍ أو من دونها . أنت تلمسني أيها الغريب . لكنك تمضي أبعد مني إذْ تنظر إليَّ . أنا مَعْبرُ بصرك» ، قالت لنفسها . استدارت إلى الوراء موغلةً في الخيال المهجور للبياض المترامي ، كأنما تتابعُ بصرَه مخترقاً جسدهَا إلى البُعد المهشَّم في بلورة الممكنات . عادت ملتفتة إليه تكلِّمه بلسان مناجاتها الأخرس الناطق : «أنت تستحوذ عليَّ لتُريني مايستعصي على بصرك . ذلك مايفعله الذين كفُّوا عن تذمُّرهم . أمْ أنا مخطئة ، أيها الغريب؟ لستَ متذمِّراً من البياض العاصف هذا ؛ من هذا الخليج الساكن كرحلة محسوبةٍ بكلِّ مجازَفةٍ فيها . وهاتُريني دفئاً لا يتناسبُ مع يقينك البارد . أوه . كيف عرفتُ يقينَك وحَدَسْتُه؟ أأنا أفكر بك ، بالحيلة التي منحتنيها في نظرتك ، إذْ أحلْتني معبراً لها إليك؟ خذلْتَني» ، همست لنفسها . أفاق صوتُها الشاردُ في النجوى فجاءة : «هذا الرجل ينظر إلى حقلٍ» ، قالت . همهم الآخرون : «حقل!!!» . انحنت

داهناليدا من مقعدها في الزحافة . رسمت برأس مديتها القصيرة النَّصل رموزَ الخيال الأول في الثلج ـ خيالِ المهجور : أربعةَ خطوط مائلةً ، متوازيةً . «نعم» ، قالت . عادتْ بجذعها مستقيماً في مقعدها . تكلمت بصوتٍ مسموع : «حقل من بنفسج الثالوث» . أخفت صوتَها في النجوى الدفينة لأعماقها ، ثانيةً : «ماذا ترى مني بنظرتك هذه ، أيها الغريب؟ قوِّضْ نظرتَك . اكسرْها ، واجمعْني» .

نقل الرجل المُرهق العينين بصرَه إلى جيماتيرك . حاصرَ محيِّرَ شجر القيقب النحيفَ ، ذا الأنف المدبب الطويل . تفرَّس الشاب المتدثر بعباءةٍ جلدٍ بيضاء في وجه الرجل ، الذي بدا فتيًّاً بعض الشيء وسط شعره الأبيض . أطلق لسانَ النجوى الصامتَ بكلام أعماقه : «نظرتُك إليَّ نظرةُ المستوحش الأنيس . أتريد إبلاغي أنك مستوحش يؤنس ، وأنني مستأنسٌ يوحش؟ ثمت شيء ضائع هنا . هل صاحبتَ كلباً؟ هل اقتنيتَ كلباً ، أيها الغريب؟ هل قتلتَ كلباً؟ الكلبُ هرطوقيٌّ . الكلب خطأٌ مقصود . عندنا كلاب كثيرة في أرض السحلبية الزرقاء . عندنا طُرق كثيرة في أرض السحلبية الزرقاء ـ زهرة الفكرة المائلة في صعودها من ثنايا الحجر ، لكنها ليست طُرقاً ، أيها الغريب . المسافات متآكلة ، هناك ، كذيل معطف يلمس الأرض ، أو أطراف أكمام قديمة . قامرتُ بعقلي ، وبخيالي ، على غريب أسلِّيه . راهنتُ عليك ، بالحقائق التي لا أعرفها ، ولن أعرفها ، منذ خروجنا بحثاً عن خليج مورتفيك . يعنيني أمرٌ واحد من نظرتك إليَّ ، أيها

الغريب : الوحدة كما هي ، بتمامها ، مكتملةً في شحْذِ مدية على مبردٍ بلانهاية . أتلتقط كلماتي إذْ أبعثرها عليك؟ أتلتقط بعضاً من حروفها النازلة ، في هدوء ، سُلَّمَ المعنى ، أو الصاعدة ، في صخبٍ ، سُلَّمَ المعنى؟ لن ألمسك لأنك مبتلٌ بالوحشة كما أرى . بَلَلٌ دافىء ، أيها الغريب ، تحت معطفك ـ بَلَلُ الوحشة . ألا تستطيع أن ترفِّه عن نفسك قليلاً بإيقاف هذه الحركة من المدية على المبرد؟ أعِرْني مبردَك لأسنَّ مديتي عليها» . مدَّ يده إلى يد الرجل المرهق العينين فسقط المبردُ أرضاً . حدَّق الجميعُ إلى الثَّلم في البياض الجريح بعيونٍ مخذولة . نهض راموسيراسمو عن زحافته . غمغم : «أنت تجفله ، يامحيِّر شجر القيقب» استعاد المبردَ من ثلْم الثلج ووضعه في راحة الرجل الجالس على الجذع المهشم . حدَّق إليه الرجل . طوَّق خيالَ الشاب الضخم الهيئة ، فأفاقتِ النجوى الصامتةُ على لسان أعماقه . جمعَ حروفَ الباطن بيد الظاهر وأرسلها متداخلةً : «سأتظاهر ، أيها الغريب ، أنني استدرجتُك من خليج مورتفيك إلى هذا المكان . أمعنتُ في إمتاعك ، طول الطريق إلى هنا ، بعلوم لا تُستكمل إلاَّ لميتٍ ظريف . الميتُ الظريف ميت غاضب من تأجيل الأَحياء تسديدَ ديونٍ صغيرة تبقَّت له في ذممهم ، فلا يكفُّ برهةً عن النقب في علومه كي يدبِّر الحصارَ الأقصر لاستعادتها . ستة وثلاثين مدخلاً يرتِّب الميتُ الظريف حيلةَ استدراج الأحياء إلى خطأ في التقدير إذ ينامون . أولُ المداخل الخوفُ ؛ والخوفُ في المنام خوفٌ عادلٌ ، منصِف ، يعجِّل

بالتسويات : كل ميت ظريف ، أيها الغريب ، يقبل - عن رضىً - بتسوية يتدبَّرها النومُ بميثاقه ، وعهده ، والتزامه ، وكفالته . لماذا أحدثك عن الموتى ، أيها الغريب؟ لا كآبة في نبضي . جُسَّ وريدي ، هنا ، على جانب عنقي إنْ أردتَ . نبضُ الدم ، في وريدي ، نبضٌ مَرِحٌ . لا بأس . فلأفترضْ أنك تقود سرباً من الإوزِّ إلى خُمِّه . قل لي ماذا تفعل أولاً ، أيها الغريب؟ أنت لم تقُدْ إوزاً إلى خِمَمِه ، في المغيب ، بعد نهار غَرِق ، رويداً رويداً ، في نهر من أنهار أرض السّحلبية الزرقاء . رائحة العشب الرطب . الضياء الأخيرُ الرطب . السماء الرطبة . الأمومة الرطبة للشهوات . الفُرُوج الرطبة في المساء ، حول القدور التي يتصاعد من تحتها دخانُ حطب الجوز . أتعرف ماذا تفعل ، أولاً ، لتقودَ سرباً من الإوز إلى خُمِّه ، أيها الغريب؟ اتَّجه عكس الخُمِّ ، جنوباً . اتَّجه جنوباً . ادفع السربَ أمامك بالكثير من الصراخ ، ثم تصنَّع التعبَ . اجلسْ على الأرض . ادفنْ رأسك بين ذراعيك إلى أن يعرقَ جبينُك من أنفاسك . ارفعْ رأسك ، بعد ذلك ، تَرَ الإوز منسحباً ، في الاتجاه الصحيح ، إلى خُمِّه» ، قال راموسيراسمو بلسانه الثاني - لسانِ الحجاب في أعماقه . انحنى . فكَّ بعض شرائط الجلد عن ساق حذائه اليمنى . تمتم : «أرى لفائف القماش مرتخية عن ساق حذائك ، أيها الغريب . دعني ألفَّ عليها بعضاً من شرائط حذائي الجلدية» . مد يده إلى ساق الرجل المرهق العينين ، فسحب الرجلُ ساقه . «أنتَ تجفله ، ياطحين الأرز» ، قالت نيديداد معاتبةً . نظر

الرجل المرهق العينين إليها . جَدَلَها ببصره جديلةَ امرأةٍ قبل النوم . تململ خيالُها ، وهي متمددة ، بطولها ، على الزحافة . نطقَ صمتُها باللسان الصامت في نجوىً لم تبتكر مثلها قَبْلاً : «لا تُشغل بالك بي ، أيها الغريب . أنا واضحة . رغباتي واضحة . جسدي واضح تحت معطفي . يقيني واضح . ذاكرتي واضحة . قلبي واضح في نبضه الهادىء ، المتراخي ، النعسان . دمي في دورته ذاتها ـ دورة الاعتدال ، وسيبقى كذلك حتى عثورنا على خليج مورتفيك . أحاولتَ أن تسلّي أحداً أيها الغريب؟ أن تقنعه بجدوى خسارته في أن ينسى متاهتَه قليلاً؟ المتاهة أملٌ ، أيها الغريب ، في عودة الخيال مجدياً بعد هذا الانحلال للسماء في صورة أرضٍ ، وهذا الانحلال للأرض في صورة سماء . دعني أعتقلك برهةً ؛ أقيِّدْك برهةً ؛ أمرّغك في صورتي المُطْبِقة على كل شيء بعناصرها . الصورة أمرٌ غريبٌ . أنتَ ممَّن يحرِّضون على إنجاب آبائهم في الفجر ـ وقتِ القطيعة في دورةِ الخيال . أنت ممَّن يُنجبون آباءهم بتؤدة ؛ ينجبون آباءً بلا أبوَّة ؛ آباء غاضبيْنَ من أن يولدوا ، هكذا ، آباء بلا نهاية ، بلا نهاية ، بلا نهاية لأبوَّتهم التي لا يعثرون عليها كآباء . آه ، نسيتُ ، أيها الغريب : لم أحبَّ أحداً حتى اليوم . أنا في السابعة والعشرين . لا أريد أن يتأمَّلني أحدٌ عاريةً . جسدي على صواب في تعريف أبعاده ، بجدارة ، ككيانٍ شائق . منطقُ جسدي على صواب ، لكنْ لا أريد أن يتأمل أحدٌ شهواتي بين يديه . أستطيع أكلَ رجُلٍ إذا أحببتُ . سآكل رَجُلاً ، في الأرجح ،

بعد العودة من خليج مورتفيك» ، هكذا أنهتْ نيديداد نجوى لسانها الصامت . قامت عن زحافتها . تقدَّمت منه متمهِّلةً . مدت يديها إلى خِماره المُنْسلتِ فغطت به رأسه . توقف الرجل المرهق العينين عن سنِّ مديته . علا صوتُ ماسيليدي معاتباً : «أنتِ تجفلينه ، أيتها الغيمة في الشروق ـ نيديداد» . مال الرجل الجالس على الجذع المهشم برأسه قليلاً ليصوبَ نظرَه ، من جانب كَشْح نيديداد ، إلى ماسيليدي . اعتصرَه بعينيه حتى سالت الكلماتُ ، بلا حروف ، من أعماق الشاب الحليق اللحية : «تتصرَّف كشبح ، أيها الغريب . يقظتُك عارمة كيقظة شبح . يقظتُك حصينة لاثغرة فيها ندخل منها إليك . جئنا ممتنَّيْنَ لِما قد نحسن تدبيره لأول مرة في أعماقنا : أن نكون مسلِّيْنَ ، بلا رجاء في تعويض ، أو مكافأة ، أو أجر ، أو شُكر . وَهَبْنا أنفسَنا إلى خيارٍ لن تستردَّنا منه ، أيها الغريب . أنت تتصرف كشبح . ذلك شأنكَ . هَلاَّ نظرت إلينا كأشباح أيضاً ، لتتساوى المعضلةُ المقسومة بيننا وبينك كـأمَلَيْن في لا شيء ، أو كل شيء؟ هل خنتَ أحداً؟ خنتُ الجهاتِ من حولي طويلاً أيها الغريب . خنتُ ماأستطيع خيانته ، ومالا اقتدار لي على خيانته . ما يتناسب مع خيالي أخونُه ، وكذلك مالا يتناسب مع خيالي . الأمور مُقَدَّرَةٌ أنْ تُخَانَ . الجوهر هو الخيانة . مَنْ لا يخُنْ يكُنْ تابعاً . قل لي : أي معنى لسلوك أمثالنا باحثين عن غرباء يسلُّونهم ، بلا مقايضة؟ لم نُسلِّ أحداً من قبل . لم نرفِّه عن أحد . لسنا مهرِّجيْنَ ، أو محرومين . لسنا مصنِّفيْ أقدارٍ .

شبح مثلك ـ إن كنتَ شبحاً ـ يعرف ما أعنيه ، أيها الغريب . هَيٍّ . دحرِجْ إليّ علامةً . دلَّني على أقصر الطرق إلى مورتفيك» ، قال ماسيليدي بلسانٍ أخرس . كوَّر بيّده حفنةَ ثلج رماها ، من جانب كشح نيديداد ، إلى الرجل المرهق العينين ، فأصاب كتفه .

ارتعشت أجفان الجالس على الجذع المهشم . احتدم غيرموهالي الطويل ، المتقوِّس الهيئة قليلاً : «ماذا فعلتَ ، ياشبحَ الزنبق ـ ماسيليدي؟ . اذبحيْه يانيديداد بمديتك القصيرة . في وريده قطرتا دم لا أكثر . اذبحيْه» ، قال . تراجعت نيديداد إلى زحافتها . ابتلَّت شفتاها المتلئتان بشتائم ندية تناثرت على ماسيليدي . حدق الرجل المرهق العينين إلى غيرموهالي . رفعه خفيفاً بيديْ بصره إلى استنطاقٍ أخرسَ فنطق الشاب الطويلُ بلسان أعماقه : « ربَّما أحدثك ، أيها الغريب ، في وقت لا يناسب هدوءك . الهدوء عندنا ، في أرض السحلبية الزرقاء ، إِعياءٌ ثقيل . الأشياء لا تتصالح في الهدوء . الأشياء تنكص عن تدبير قواعد للقُوى ، في الهدوء . الهدوء مضلِّل ؛ وثبةٌ إلى الغرق . لكن علينا تبجيل الهلع ، الذي لا ينبت بسماد آخر غير سماد الهدوء . السهم ، إذْ أُطلقُه للقَنص ، أدلِّلُهُ بلسان صامت : ينبغي أن يكون قلبي هادئاً حين أكلِّم السهمَ ؛ أن تكون يدي هادئة ؛ أن تكون عيناي هادئتين . البرهةُ الهادئةُ في يقين الطريدة هي المقتل . الهدوء عِلْمُ اختزال الزمن كله ، الذي ببدءٍ أو من غير بدءٍ ، إلى صوتٍ مُخْتَزَلٍ في سهو الحركة عن دورها . الهدوء عناد ، وتهويل بالعناد .

أنت تتصيّد شيئاً أيها الغريب . كلماتي لا تناسب هدوءك ، لكنني مُرغَم على قول شيء لغريب خرجتُ من أرض السحلبية الزرقاء كي أسلّيه إذا التقيته . أمرٌ لاخيال فيه ؛ لا حكمة فيه ؛ لا نباهة فيه ؛ لا عبث فيه ؛ لا هزل فيه ؛ لا موهبة فيه ؛ لا حماقة فيه ؛ لا خساسة فيه ؛ لا شرف فيه ؛ لا انحطاط فيه ؛ لا رفعة فيه . أنْ تَهَب نفسَك لرحلة من أجل ترفيه غريب مقامرةٌ كالغفران ، أيها الغريب ؛ كتلفيقٍ محتوم لأقدارٍ ليستْ تعرف أنها أقدارٌ . يرنُّ الوترُ في قوسي الفولاذية قبل فوات الأوان ، أبداً ، مصحوباً بهدوءٍ بعد فوات الأوان . الهدوء فواتُ أوان . لا كمالَ للأوان إلا بمايفوّتُه الهدوءُ عليه . الصياد يعرف ذلك . خُذْ ، مثلاً ، أيها الغريب : هَبْني رأيتُ عُقعقاً يحمل عظامَ عقعق ، مات من أمد ، إلى عشه ؛ بِمَ عليَّ أن أفكر في برهتي تلك؟ إنه يجعلني أسهو عن الصيد قليلاً . إنْ يبْنِ طائرٌ عُشَّه بعظام طائر آخر ، من صِنْفه ، أمرٌ أشبه بالهدوء . الهدوء ميثاق مبتذل . لا شيءَ بعد الهدوء مثلُهُ كقبْل الهدوء» ، قال غيرموهالي . نقل بصرَه عن وجه الرجل المرهق العينين إلى وجه ماسيليدي : «ألم تذبحك نيديداد ـ الغيمةُ في الشروق؟ . إنها لا تريد ترفيهاً يجفل الغريب» . تمدد على زحافته : «سأذبحه ، بنفسي ، أمام الصيادين في خليج مورتفيك» .

تفتّت النهارُ ، سريعاً ، بين أنامل خليج أُوْدِنْ في صحن الليل . لم تُعتم السماءُ المُطْبِقةُ على الأرض بأضلاعها العارية : ظلَّ البياضُ الشاحب مشتغلاً بفرشاته على دَهْنِ الأشكال النافرة في لوح الوجود

المرئيّ .

الصِّحابُ الستة تمددوا فوق زحافاتهم بلا أغطية : لم يأكلوا . لم يشعلوا ناراً . لم يناموا . حدَّقوا إلى الثلج في هطوله أربع مراتٍ ، تلك الليلة ، مستلقيْن ، دون أن يغمضوا جفونهم . فيما لم ينقطع الهسيسُ المعدنيُّ ، الصاعد من احتكاك المدية بالمبرد في يديٍّ الرجلَ الجالس على الجذع المهشم .

في الفجر ، الشبيه بمساءٍ مُتْعَبٍ ، نهضوا هادئين . نظروا طويلاً إلى الرجل المرهق العينين ، ثم غادروا ، تاركين متاعهم كلَّه ، وزحافاتهم . غابوا في اللفيفِ الشجرِ . غابوا في الجرح الأبيض ، تحت الضلع الثاني من أضلاع الثلج العارية .

لوعةُ الرجلِ المُرهَق

انتـصب الرجل المرهق بقـدمين حـافيـتين على البـرزخ الطين . ارتعش قليلاً ، ونشجَ . سبعة خيوط من الدمع تلاحقت في انحدارها من عـينيه إلى مـياه خليج أُوْدنْ المسترخيـة ، ذلك الصبـاح الدافىء ، خلف نسيج باهتٍ من الضباب ـ روح الخلائق الدفينة .

انحـسـر الضـبـابُ ، رويداً رويداً . اتَّضـحتْ سطورُ الزبد الرقـيق متلاحقةً ، بلا اكتمال ، في اندفاعها الهانىء بمراوح من أقلام الهواء ، إلى الشاطىء المتفجِّر زهراً أصفر ، ماجنَ الصُّفرة ، ـ زهرَ لغوِ الربيع . أشباح سُفنٍ طفتْ خُلسةً منشورةَ الأشرعة . جَرَت متقطِّعةَ الظهور ، ثم غاصت . قرفص الرجل المرهق العينين . حَفَنَ الماءَ براحتيه ، وعادَ فأطلقه منهمراً من بين أصابعه : «أبنائي يتكاثرون في المياه . آبائي يتكاثرون في المياه» ، قـال هامسـاً . ردَّد على نَفْسـه : «تماثيل» . وضع

راحته على جبينه : «تماثيل» . نشجَ من جديد . إحدى عشرة قطرةً من الدمع سقطت فوق بنطاله الرمادي الواسع كشراع . همس بلسان خياله المُرهق : «لا امرأة تحتفظ بأب واحد ، وأمٍّ واحدة ، في ذاكرتها . لا رجل يحتفظ بأب واحد ، وأم واحدة في ذاكرته . لكل كائن كثرةٌ من آباء وأمهات ولدوا ، واحداً تلو الآخر ، من لوعته إلى نسيانهم . أن يكون الكائن بلا ذاكرة يعني تحصيلَ الكثرةِ المدهشة من مراتب وجوده المتَّزن في فوضاه الرحيمة . لكن الكلبةَ ـ الأملَ ، ابنةَ الرحلة الدافئة من الرحم إلى الحنين ، توقظ بنباحها عقولَنا ـ عقولَ الرعاة ، فينحدر كلٌّ بقطيعه من أشباح الأسلاف إلى المراعي . آه ، أيها الأملُ الجاحدُ نعمةَ أن نبقيه أملاً ، لا أكثر ؛ أرى إلى نسياني مُعْتَصراً في يديك يتقطَّر فوق ذاكرتي ، فينتابني أَرَقُ الدَّفين . وها أنا ، كما تعتصرُ نسياني ، أعتصرُ مايَلِدُ من خيالي المُمَزَّقِ صوراً لتماثيل بحر هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ ، التي لم أرَها . أعرف كل شيء ، أيها الأمل . أعرف كل شيء ، على نحوٍ طاحنٍ ، بلا هوادة ؛ لكنْ بلا اقتدارٍ على تعريف أيِّ شيء . أنا نجاةُ النسيانِ ، كنجاة هذه المياه من الغرقى . أنا نجاةُ النسيان من غرور الذاكرة الخالدة ـ ذاكرةِ الوجود المذعور ، لكنني بلااقتدار على تعريف هلعي من النجاة . مَنْ هم الذين صنَّفوا الأخبار ، تِبْعاً لدقائقها ، عن التماثيل الثلاثة ، المعدن ، المنتصبة على صخرة قبال بحر هِيلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ؟ نحن من اليابسة النائية ـ يابسة أرض دُوْكُوْن ، التي حفظت بذورَ الزفير من رئات رحَّالتها المفقودين

منتعشةً في سماد حقائقها . عشرة قرون مضت على الأخبار المنتعشة ، تلك ، قبل أن يُثْمِرَ نباتُها توتاً بريًّاً في حقل جيلي ـ جيل مناجم البرِّ . خشبٌ كثيرٌ سُوِّيَ ، وصُقلَ . بَكَراتٌ ، وحبالٌ ، ومسامير ؛ قَارٌ ، وصمغ كُنْدرٍ ، وقماش كغيوم ، وعِلْمٌ من طباع أهل المِلاَحة والأنواء : كلُّه اجتمع لتسوية المُعضلة ، التي أثَّثْناها برغبتنا في ابتكار سفينة . بنينا سفينة . كنا مائتي رجل مَنْ تولَّوا الزحف بها ، عبر الفراسخ الألف من سهول دُوْسْخو . سحلناها سَحْلاً بالحبال ، فوق رصيف من جذوع الشجر نعيد نَقْلَ مؤخرته إلى مقدمته كل مائة قدم . تساقط جلْدُ الأقدام ونبت جلد آخر . هزلت الخواصرُ ودقَّتِ الأعناقُ من التعب . اهترأت أطرافُ الأكمام ، وتمزَّقت نعالُ الأحذية ، وابيضَّت ظهور القمصان وصدورها من ملح العَرَق . بلغنا شاطىء هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ . نمنا يومين متتاليين كي نتمكن من استعادة أصواتنا ، التي جفتْ ، نديَّةً ذات رنين من عبور كلمات الإنسان المستجمِّ قليلاً . هنَّأ أحدناً ، الآخر بمديح من عينيه ، قبَل نشر الخرائط المحفورة كَيَّاً بالأقلام الحديدِ الحامية علَى أربعة ألواح عرضناها لوحاً إلى جوار الآخر : هاهي الصخرة المستوية قبالة المياهِ . هاهي ألسنة اليابسة ممتدَّة في الأزرق الصميم . العالمون ، نحَّاتو أخبار التماثيل على الجِصِّ ، في أرض دوكون ، وثَّقوا الزبدَ ، والغيومَ ، وملاجىءَ الشمس في سماء هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ . علومهم كلُّها كانت بين أيدينا على شاطىء البحر االساكن ، السحيق . انتشرنا على الأكمات

مستطلعيْن . كذَّبْنا أحاديثَ أعيننا ، وزعمنا أن بقيةً من حجاب التعب لماتزل مسدولة بيننا وبين البزوغ الكامل للهيئات المرئية على أبصارنا . استرحْنا أكثر ليصفو ماينبغي أن يصفوَ ويبيْنَ :

لا تماثيل .

لا أثر لمعدنٍ انتُشِلَ ، أو نُهِبَ ، فوق الصخرة الكبيرة المستوية قبالة البحر .

لا خدوشَ في الأرض ؛ لا زَجْرَ للحصى أو الرمل .

صدَّقنا أعيننا ، وكذَّبنا علوم نحَّاتي أخبار التماثيل . انحنى كلٌّ على وَجَعه مستسلماً للحكمة الجديدة ، التي نبتت على لسانه - حكمةِ الدأب على قولٍ ناقص . لم نعد نتخاطب بكلام فيه تمامُ العَرْض أو التوضيح ، إلاَّ مساءلةَ الغامضِ : ماذا لو عثرنا على التماثيل ، وحملناها إلى السفينة؟ حَسَناً : عثرنا عليها ، ثم ماذا؟ نُبحر بها إلى أين؟ لا شواطىء قريبة من أرض دوكون . مامِنْ مَعْبرٍ في المياه إلى دوكون . مامن جدوى لوجود سفينة معنا . لو جئنا بعربات ، أو عجلات من جذوع الشجر ننقل عليها التماثيل سَحْلاً . لو . . .

لا تماثيل .

الوجع .

في العودة لم يتوقف أحد من المائتين عن سرد علومه على الآخرين بلسان ألمه وخذلانه : علوم بلا حدود . بسيطة . مذهلة في خِفَّتها . كُلية : علوم استدراجٍ ، واستحواذ . قال لي الربان ، الذي

اختير لرحلة سفينةٍ قُيِّض لها أن تمخر في البرِّ، إنه يريد محادثتي على انفراد ، فأجبته : «أعرف ما تريد . الوقت ملائمٌ الآن» . حدّق أحدنا إلى الآخر مليّاً . لقد أدرك أنني كلمته بلسانه الذي لم يرتب الكلمات بعد . انفصلتُ عن المائتين الذين نقصوا واحداً . كانوا يتداولون ، همهمةً ، اسم أخدود تاييْسْ . أرادوا العودة إلى دوكون عبر أخدود تاييس المفقود . وأنا أردت العودة إلى دوكون عبر سهول دوسخو الأليفة ـ سهول فصائل النبات العُسْقولية .

في كل خطوةٍ أسقَطتُ ذاكرتي ، بتواطؤٍ مني عليها . أسقَطتُ ذاكرتي كقشر الفستق . قشرٌ لن ينبت . قشرٌ مملح . القشور ليست بذوراً . إنها الغلاف الأمُّ ؛ الكَرَم العريقُ الحافظ . القشور لا تريد ذاكرةً كالبزرة . القشورُ حريّةُ النهاية . بقيتُ بزرةً مذ تقشّرَتْ ذاكرتي عني ، وتناثرت ورائي . خرجتُ ، في عبوري سهولَ دوسخو ، بزرةً خالصة تعهّدتْ نَفْسَها بالنموّ في اللامُحتَملْ الأليف . نَمَوْتُ شكلاً لامُحْتَمَلاً ؛ وعداً لامُحتملاً ؛ خلوداً لامُحْتَمَلاً في نقائه المتعثّر بآلهةٍ متعثّرة .

لم أجد طريقي إلى دوكون عبر سهول دوسخو الأليفة .

العودةُ ، عبر المكان الأليف ، حيلةٌ قد تَخْذُلُ .

العودةُ لا تتطابق ، في المسافةِ الأليفة نفسها ، مع المغادرة ، لذلك لن ألتقي ، أنا العائد من بحر هيلاكريتوثينيس ، بي ـ بالخارج من أرض دوكون . لا يهمُّ . أخذتُ الأمرَ بهدوءٍ ، في تعريف حالي ،

بالقياس إلى مَن يُسمَّى ضائعاً . أن أضيعَ هو السّطرُ المدوّنُ ، بحرقةٍ ، من سطور الوصولِ إلى المتعيِّن الضائع ذاته . أن نضيعَ هو كلُّ شيء . لذلكَ أعرفُ كلَّ شيء ، بضراوة . أعرف كلّ شيء ، لأنني بزرة كلِّ شيء ، مُذْ رُتِّبَ كلُّ شيءٍ ترتيباً لا يعثر فيه سياقٌ على آخر .

قطعتُ بمديتي ، في الطريقِ عبرَ دوسخو ، لحوماً لا أعرفُ أنني اقتنصتُ كائناتها . أكلتُ فاكهةً نبتتْ على شجرٍ من غيرِ جنسه . أكلتُ تراباً مالحاً ، ومِزّاً ، وآسِناً مُرّاً ، وتَفِهاً . تنَفستُ هواءً متردداً في الاعتراف بمنطقه . قضمتُ الخفيَّ نفْسَهُ ، الذي له هيئةُ الجوز ، أو الكراث ، أو الهليون . مررتُ بخلجانٍ كثيرةٍ ، في دورةٍ ظننتُ أنها تقودني إلى اليابسة النائية عن المياه .

سمّيتُ كلَّ خليج باسم ، وغادرتُه .

كلُّ خليج أراني أشباحَ جُزُرٍ طافحةٍ في المياه ، غادرتهُ ، لأنني لا أحبُّ الجُزُرَ ، بل السهولَ الوسطى من خيال الأرض . لكنّ الخليجَ ، الذي سمّيتُهُ أودن ، أراني أشباحَ سُفُنٍ عابرةً ، فأقمتُ فيه إقامةَ اليقظان بلا أملٍ في يقظةٍ ثانية . وها أنا فيه بتمامِ علومِ الذين افترقوا عني ، بعد الخيبة أمام بحرِ هيلاكريتوثينيس . ها أنا هنا بالخلود ، الذي استحْدَثتُه من سَنِّ مديتي على المبرد الحجر» .

شحاريرُ سودٌ حطّت ، متفرِّقةً ، على بُعْدِ قليلٍ من الرجل المُرهَق العينين . كلَّمَتِ الترابَ الرّطبَ ، المُعشِب ، بلسانِ الطبائع الستِّ مترجمةً في خيال الطير ، ثم أغمدت مناقيرها الصُّفرَ في الشقوق

فاستخرجتِ الديدانَ الخراطينَ متورِّدَةً بالعافية من حوالبِ العناصر .

طارت الشحارير كسلى ، مترفَةً .

دار الرجل المرهق العينين على نفسه واقفاً . تشمَّم الدبيبَ الحَذر لروائح بَعْرِ الغزلان . تشمَّم دبيبَ أظلافها الهامس . تشمَّم صورَها بعينيه المرهقتين إذ رأى أجسادها الرشيقة تتدافع حروفاً تُقْرأ من حروفِ المسكوكاتِ ـ الخلائقِ : ثلاثة عشر غزالاً وغزالة وردتِ الماءَ العذبَ في خليج أودن . ارتوتْ . أربع غزالات منها رفعنَ بُغَاماً أنيقاً ، متتالياً ، درَّبتْه حناجرُهن على شرائع الصوت .

نَبَضَ النُّسْغ قوياً في الشجر .

عاد الرجل المرهق العينين إلى الجذع المهشم . أبعدَ بنصل مديته ، بَزَّاقاً أسود ، وجلس . سربٌ من طيور العقعق انتشر ، مذعوراً في هروبه ، أو متصنِّعاً الذعرَ ، آتياً من جهة شجر الصنوبر شمالاً . عَلَتْ غمغماتٌ مبتورةَ النَّبر من وراء حجاب الغصون والجذوع . نهض الرجل المرهق العينين . أغمد مديته في الجذع المهشم ، ووضع المبرد قربها . مشى بتؤدة إلى اللفيف الأخضر المشتبك العريق . دخل الجوفَ الظليل ، المفروش بالأوراق الوبرية ، وأكواز الصنوبر اليابسة . اختزل عبورَ الشجر الكثيف بالتفافٍ إلى الشرق ، صاعداً صخورَ الشاطىء السوداء ، المكتسية بغلاف من الطحالب والأُشنات . تقدَّم شمالاً . انكشف المستورُ المُغْلَن : قطيع هائل من ذكور الأيائل ، منتظمُ الصفوف في الأرسان والمقاود ، يجرُّها رجال ، وهي تجرُّ ، بحبالٍ جلدٍ مشدودة

إلى خواصرها ، سفينةً راسيةً على ألواح فوق عجلات . قرونٌ نقوشٌ كشعاب المرجان ، فضيَّةٌ لاقرون الأيائل ، ووبرٌ ذهبيٌّ لاكوبر الحيوان في سكوغوس ـ أقليم العبث المعتدل . الرجال ، المرتدون أقمشةً طويلة بلا تفصيل ، خشنةَ الحياكة ، مزنَّرة عند الخواصر بحبال رقيقة ، قادوا مخلوقاتهم ، بكلمات الإغراء ذوات الحروف المتدرِّجة همساً ، إلى جُرْفٍ خفيف من برزخ اليابسة . فكّوا عنها الأرسانَ والمقاود ، والحبالَ الجلدَ المشدودةَ إلى خواصرها . سرَّحوها ترعى باتجاه القاطع الشرقي من الخليج ، حيث مَرْبَع الأرض مغطى بورق الزهر متناثراً عن أشجار الكرز الأسود ، وبالبندق الغضِّ ، الذي أسقطته الريح بدعاباتها أواسط الربيع . دفعوا السفينة ، مستعينين بانحدار الجرف فانزلقت السفينةُ بحيزومها ، عن العجلات ، إلى الماء . بلا تكلُّفٍ أنجزَ المشهدُ خصائصَ غايته .

في هدوء تسلَّق الرجالُ السفينةَ من السلالم الحبالِ . كانوا كَمَن خزنوا مؤونةً ومتاعاً فيها ، أو لم يأبهوا لإحضار مؤونةٍ ومتاع . اقترب المرهق العينين منهم حتى كاد يخالط الذين انتظروا دورَهم للصعود ، لكن مامن أحد شملَه بنظرةٍ . نُشِرت الأشرعةُ فانزلقت السفينةُ زحْفاً هنيَّاً ، بدَلال الحيلة ، التي استمالت بها اليابسةُ الهواءَ إلى شَرْعها فمكَّن الهواءُ الأجسامَ أن تطفوَ بإقامته فيها : لقد سقى الثِّقْلَ الغريقَ (دِيْنَ المياه) شكّاً من يد الخِفَّة الناجيةِ (دِيْنِ اليابسة) .

لكن اليابسةَ البرَّ ، التي وقف عليها الرجل المرهق العينين

شاخصاً ببصر قلبه إلى السفينة ، لم تأمن سريرةَ الهواء ، في توالي الزمن ، الذي بلا بدءٍ ولا نهاية ، على ترتيب خيالها . هكذا نَحَتْ ، بنفسها ، إلى مساومة المياه ، في معاقلها الكبرى والصغرى ، كي تُبْرِمَا شَرْعاً للبرزخ بين كليهما . وللإمعان في التحريض على ثِقةٍ تدوم ، أطلقت اليابسةُ أسماءَ مخلوقاتها على مخلوقات المياه إرضاءً وتَقَرُّباً : السمكة القُزحية . عروسة البحر الفراشية . السمكة الطاووس . السمكة العقرب . قنديل البحر . عبّاد شمس البحر . أسد البحر . فيل البحر . جرادة البحر . حمار وحش البحر . عشبة خسٍّ البحر . العشبة العنكبوتية البحرية . الصَّدفة المنقارية . الصَّدفة الجوزية . السمكة الكُركية . سمكة موسى . الصَّدفة البرجية . جندب الماء . برغوث الماء . صَدَفة رِجْل القُوْق . صدفة كمثريَّة . صدفة درَّاقية . سمكة السيف . السمكة النمر . السمكة العنكبوتية . إلى آخر مالا يشمله العددُ بصواب منطقه ، أو خطأ منطقه . أما البرمائيات ، التي هي أسسُ الصُّلح الممكنة في حروب العناصر ، فظلَّ حُكْمُ أسمائها خارجَ تقرُّب اليابسة من المياه . أسلافُ الرجل المرهق العينين استيقنوا أن أمَ مخلوقات هذا الجنس أكثر التصاقاً باليابسة ، وفي اقتدارها الاستغناءُ عن المياه : ضفدع الشجر . السمندل الذيَّال . العُلجوم النقَّاق . السلحفاة . الضفدع الثعباني . السلطعون . سمندل النار . التمساح . البطريق . العِظاءة ، وقبائل أخرى من المحاربين الخلائق ، السائرة على أقدام كثيرة ، أو زحفاً ، أو قفزاً ؛ تلك التي قُيِّضَ لها أن تقيس الهواءَ

السفليَّ والعُلويَّ بتمام خصائصه ، قبل نضوج البزرة الأولى للإنسان في سماد الشكل الوسيط بين الطين والتيه .

يستطيع الرجل المرهق العينين أن يخمِّن ، في جلوسه أمام خليج أودن ، أن حيلة اليابسة ، المتمثلة بعقل أسلافه في إرضاء المياه ، لم تنْطلِ عليها . ارتابت المياهُ في ميثاق القُربى المزعوم مُذْ رأتِ السلالاتِ المتتابعةَ من آباء الخوف الآدميين وأبنائهم لا يطلقون أسماء مخلوقات المياه على الوَرَثة الآدميين أو حيوانات البرِّ : لماذا لايُسمَّى الأسد باسم الدلفين ـ الزَّامور ؛ أو القرد باسم السمكة ؛ أو الشجرة باسم الخنكليس ؛ أو الإنسان باسم الصَّبيدج؟ القليل من كائنات البرِّ ، ممَّن تحصَّل له اسمُ مخلوق مائيٍّ ، كان أمره أقرب إلى السخرية ، أو التوصيف بألقاب الجشع والشراهة ، كالأخطبوط ، والحوت . لن تنطلي الحيلة على المياه : الأسماء ، كلُّها ، من تلفيق أُم اليابسة الناطقيْن . المياهُ لا تحبُّ الأسماء . وهي إذْ تُخْلي لليابسة حيِّزاً من عقلها ، في الجَزْر ، تظنُّه اليابسةُ امتناناً من المياه لثنائها ، لا تلبث أن تستعيده مُضاعفاً ، في المدِّ ، تذكيراً بأن المياه لن تُمتهنَ بحيلة أم البرِّ الناطقيْنَ .

الرجلُ المرهق العينين يعرف ذلك . لكن الأمر لا يعنيه : إنه لا يتأمَّل المياهَ في خليج أودن بسطوتها القابضة على الأفق الشاسع ، بل يبسط على أطلس الغمر العظيم برَّ أعماقه متنكِّراً في لون الماء .

خمس فراشات طاووسية ، موزَّعة الأجنحة على زوايا اللون

الداكن ، واثنتان من صنف عين الصقر الممتلئة البطون ، عبرت برزخ المياه تتبع السفينة ، في تحليقٍ راقصٍ . عدَّها الرجل المرهق . اغرورقت عيناه بدمعٍ صاعدٍ من زفيره إليهما .

عاد الضَّبابُ ، الذي انكمش ذلك الصباح الدافىء ، إلى انتشارٍ مباغتٍ ، من جهة الأفق ، فوق الغمر .

الحريق

دارت أسياخُ السّفود الحديدُ فوق النيران . دارتْ معها أجسادُ الخنانيص ، الممسوحة بزيت الذرة والتوابل . في تسع زوايا من الساحة توكّل الصبيّانُ ، بمرح ، إدارةَ الأسياخ ، وسط نشيش شحم الشواء ، ورقابة العارفين بمراتب النار ، الحاضرين لدَهْنِ الخنانيص ، بين وقت وآخر ، بأضاميم من أوراق الغار مغموسةٍ في مَرَقٍ حالِمٍ ، مثرثرٍ من نكهة الأفاويْه .

شواء الخنانيص الصغيرة لا يهدأ ، أربعَ ليالٍ كل ثلاثة عشر يوماً ، في ملتقى سهول أرض السّحلبية الأوركيد الزرقاء ـ زهرةِ الفكرة الباردة ـ بالوعر الصخريِّ المجلّل بأشجار البندق المكتهلة . لحمٌ كثيرٌ ، دسِمٌ ، تتقاذفه أحلامُ النائمين الدسمة بعد الشبع ، فيما تُقَضْقِضُ الكلابُ ، حتى الفجر ، أضلاعَ الليل مختلِطةً بعظام الخنانيص .

«ساحة العظام» بات اسمُ ملتقى السهول بالوعر الصخري . لكن بعض الناطقيْنَ بالتوريات القلقة ، آثروا التحويرَ المُلْغِز ، فسمُّوها «ساحةَ المرايا» ، مُذْ أشرقَ عليهم منطقُ أعماقهم بتذكير العقل أن «العظم مرآةٌ» : حين تتعرى العظام من اللحم تعكس الصورَ الأكثر سطوةً ، التي يتوسَّل بها الخيالُ إنقاذَ المعنى المفقود .

في ركن منعزل من ساحة «العظام المرايا» ، تحلَّق جمعٌ صغير بعيداً عن هرج الجماعات الأخرى المتحلِّقة حول نيران الشواء . هم أشعلوا نارهم أيضاً ، لكنها لم تكن كافية لشواء فرخ دجاجة . وقد تأجَّجتْ ، برهةً بعد أخرى ، كلَّما رموا إليها بورق عريض الصفحة ، ثقيلٍ بصناعته من نُخالة لحاءِ الحور .

كانوا يرتدون قبَّعات ، كالآخرين ، على جوانبها ثقوب لتثبيت عيدان طويلة ، مشتعلة ، بطيئة الاحتراق . ست نساء ، وستة رجال ، في العقود الخامسة والسادسة من أعمارهم ، تقاسموا كتاباً مهترىء الدفتين بعد تمزيقه رِزَماً متساوية ، يُلقي كلٌّ منهم برزمته إلى النار ورقةً ورقةً ، بعد قراءة سطرها الأخير في ضوء اللهب . «كتابٌ مُنْجَزٌ بتمام غايته ، كاملٌ ، هو النهاية . كلُّ كتابٍ نهايةٌ . لا نريد كتاباً» ، قال الشيخ الغائر الوجنتين يُوْهَا ، الحسيرُ البصر .

«لماذا انتظرنا طويلاً كي نحرق هذا الكتاب ، ياقناعَ الذئب ـ يُوْها النبيل؟» ، سألته المرأة الشديدة البياض ، ذات الوجه المنتفخ من عافية الأجبان ، فردَّ الشيخ المتآكل اللحية سِيْلْ :

ـ كي نستيقنَ أن لا نقصانَ فيه ؛ لا ضعفَ فيه ؛ لا مللَ في سطوره ؛ لا خلل في سياق حروفه ؛ لا إضافات منحولة .

«تعني كمالَه ، ياقناع السنجاب ـ سيل العالِم» . تمتم الشيخ لُوْ البدين ، ذو اليدين المرتعشتين .

«أعني حلَقتَه المُحْكَمة ، ياقناع العقعق ـ لُو المهذَّب» ، رد سِيْل .

«كيف تأكد لنا حُكْمُ اكتمال حلقة الكتاب؟» ، ساءل الشيخُ رَاكُوْفْ ، الأفقمُ الفم ، المتخلِّع الأسنان ، جارتَهُ الكهلة لُوْلُوْكيْ . ألقت الكهلة أربع ورقات ، دفعة واحدة ، إلى اللهب : «أتسألني؟» ، قالت . تكلَّم فِيْنَاكُوْ ، الشيخ المبتسم ، أبداً ، في سخرية : «إنها على عجلة من أمر هذا الكتاب ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل . هيَّ . اسْألْني أنا» .

«أنا أسألك» ، قال راكوف .

«عمَّ؟» ، ردَّ فيناكو .

«عن الكتاب المُحْكَم الحلَقَةِ هذا ، الذي نحرِقه» ، قال راكوف .

«لقد توجَّب على أحدٍ ما أن يعمِّم الإشكالَ المُحْكَم» ، قال فيناكو . عضَّ بأسنانه على الرزمة التي في يديه ، ثم نظر إلى أثر العضِّ في ضوء اللهب . تمتم : «أسناني لما تزل فتيَّة» .

نخزه راكوف بمرفقه : «سألتُك عن الكتاب ، فأجبتني عن خصيتيك . أهما كأسنانك ، ياقناعَ الإوزِّ ـ فيناكو الرائع؟» .

«أنا أعطيك جواباً» ، قال الشيخ بُوْلْبُوْن الضيِّق الأجفان . «حين تتوافر لدينا نوازعُ إحراق كتاب ، نكون ، إذاً ، على يقينٍ من اكتمال

حلقته» .

«لا أجد نازعاً كبيراً فيَّ إلى إحراق هذا الكتاب . لكن الأوراق تلتهب على نحوٍ شهيٍّ» ، قالت المرأة المترهلة سُوْدْ ، المنتفخة الجفنين العلويين ، فوق عينين زرقاوين فيهما أثر رغبةٍ لم تُروَّ .

«استمعْ إلى زوجتك سُوْد ياقناع الثور ـ راكوف الباسل . إنها تعرف ، في الأقل ، شيئاً عن الكتاب» ، قال سِيل ، فساءله راكوف : «ماذا تعني؟ أنا أعرف ، أيضاً ، أن أوراقه تلتهب . الأوراق ، كلُّها تلتهب ، إذا أطعمناها النارَ» .

«سُوْد قالت إن أوراق هذا الكتاب تلتهب على نحوٍ شهيٍّ» ، ردَّ سِيْل المتآكل اللحية . فهزَّ راكوف رأسه غير راضٍ . تكلَّمَ :

ـ وأنا أراها تلتهب على نحوٍ مُضْجر . النار أكثر العناصر ضَجَراً من نفسها .

«ها ألهمْتك هذه الأوراقُ المحترقة شيئاً من أنين الحكمة . خيالُك يئنُّ ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل» ، قال بولبون الضيق الأجفان ، وأضاف : «لو لم تتوكَّل بإذكاءِ النار ، الآن ، بأوراقك هذه ، لما منحتنا شرفَ أن نتعرَّف إلى النار بخيالك» . دار ببصره على الآخرين : «مَنْ منكم خطر له أن النار الشقيَّةَ عنصرٌ ضَجِرٌ من نفسه؟» .

تطاير هبابُ الورق المحترق حين تأججت النارُ من رُزم أخرى أُلقيت فيها . تبادل الرمادُ الهباءُ والشررُ نظرةَ السخرية . دمدم راكوف : «لم يخبرني أحد كيف عرفنا باكتمال حلقة الكتاب» .

ردت لاَهْلا ، النحيفة الشاحبة : «خُذْ كلام بولبون على محمل جوابٍ . إِنسَ الأمر . احرقِ الكتابَ ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل» .

احتدم راكوف قليلاً : «لم يقل بولبون شيئاً عن الكتاب . تحدث عن خصيتيه» . تدخَّل سيل :

ـ ألمْ توافق معنا على إحراق الكتاب ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل؟ .

«بلى» ، ردَّ راكوف ، «لكن ، ماعلاقة ذلك بأن الكتابَ نهايةٌ؟» .

«ولماذا تحرقه؟» ، ساءله سيل ، فأجابته سُود ، زوجة راكوف : «دَعْ لحاجتَه ، ياقناعَ السنجاب ـ سيل ، العالِم . قطعاً ، يعرف راكوف لماذا يحرق الكتاب» .

استطردَ سيل سائلاً راكوف : «مااعتراضُك ، حقاً ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل؟» . تكلمتْ لُوْلُوكي البيضاء الشعر ، ذات الوجه المنفرج الأسارير : «سيردُّ راكوف عليك ، بالسؤال ذاته ياقناع السنجاب ـ سيل العالِم» . اقتربتْ من سُوْد : «ادفعي بزوجك إلى النار . عليه شحمٌ منعِش» .

«لابأس» تمتم سيل . حَزَم لسانَه بُحريَّة خياله : «عرفنا باكتمال حلقة الكتاب مُذْ جرى رَزْمه ، وتجليده ؛ أيْ : مُذْ صار كتاباً ، وتداوله العارفون العالمون» .

قاطعه راكوف : «ولماذا لم يحرقه العارفون ، قبلنا؟» ، قال المتخلِّع الأسنان . فردت عليه آنْفَا الممتلئة ، ذات العينين النائمتين : «لأنهم

آثروا الإقامةَ على قُرْبٍ من النهاية ، أو فيها» .

رمى راكوف بكل مافي يده من ورق إلى اللهب : «نحن رُسلٌ مختارون» ، قال ساخراً . «العارفون الأكثر كمالاً آثروا الإقامةَ قربَ النهاية ، أو فيها ، ونحن ندفنها ، الآن ، في رمادٍ شهيٍّ ، يازوجتي سودْ» . قهقهَ . دار من حول النار : «ماالفرق الأبديُّ ، الذي استحدثناه الآن؟ كومة من الرماد أُضيفتْ إلى قمامة الأرض» . اقترب من لاهْلاَ النحيفة ، ذات العينين الخضراوين الواسعتين . «قولي لي : ماذا بعد إحراق النهاية؟» . ساءلها مبتسماً ، فبادلتْه لاهْلا نَفْخاً من فمها عليه : «نبحث عنها ثانية ، ياقناع الثور - راكوف الباسل . نعيد النهايةَ إلى صوابها» ، قالتْ ، ثم رمتْ ، في هدوء ، بورقة إلى اللهب .

«إننا نثرثر» ، قال راكوف . هزَّ رأسه امتعاضاً : «إحراقُ هذا الكتاب ثرثرةٌ . النازعُ هو الثرثرة ، ياقناعَ الوعل - بولبون الصاخب» .

«بل إعادة النهاية إلى صوابها» ، قالت لاهْلا .

«وماصوابُها؟» ، ساءلها راكوف .

«أن تعرف النهايةُ أنها نسيانٌ» ، قالت لاهْلا ، والتفتت إلى الشيخ البدين ، ذي اليدين المرتعشتين : «أنت صامت ياقناعَ العقعق - لُوْ المهذَّب» .

«أأنا صامتٌ؟» ، قال لُوْ ، ثم تصنَّع التفكير في الأمر : «تشغلُني رائحةُ الشواء» .

«ومالذي يشغلُك من رائحة الشواء؟» ، ساءلته سَاسْكَا الطويلة ،

الذابلة الإبتسامة ، فرد لُوْ : «تذكرني بشيء ما . تذكرني بساحة العظام في أرض السحلبية الزرقاء» . رمى ببعض الأوراق إلى اللهب : «هذا المكانُ يُذكِّرني بشيء مًّا» .

«يذكِّرك بك ؛ بوجودك في ساحة العظام» ، قالت سَاسْكا الرقيقة الوجه . تألَّقت ابتسامتُها الذابلةُ سخريةً : «أن يذكِّرك شيءٌ بك ، لَهْوَ أمرٌ معذِّبٌ ، ياقناع العقعق ـ لُوْ» .

لم يأبه لُوْ إلى لَمْزها . دار بوجهه إلى حلقات اللهب الأخرى ، المتأججة ببَرَكة الشحم : «لماذا لا ننضمُّ إلى الشوَّائين؟ فلْنعجِّل بإتلاف أوراقنا» ، قال .

«أتحسُّ جوعاً؟» ، ساءلته البيضاء الشعر ، القوية القوام ، لُولوكي .

«لا» ، ردَّ لُو .

«ولماذا ننضم إليهم؟» ، ساءلته ثانيةً ، فردَّ لُو :

ـ لنذكِّرهم بشيء ما .

تكلم الأحمرُ الوجه ، الضيق الأجفان بُولبون : «هم لا يحتاجون إلينا لتذكيرهم بشيء ما . ليسوا على قُربٍ من النهاية . ليسوا على قربٍ من البداية . من تكون أحوالهم هكذا لا يحتاجون إلى تذكيرهم بشيء» .

«لا تُغامرْ بتحديد المعاني ، ياقناعَ الوعل ـ بولبون الصاخب . البدايةُ اختلاقٌ . النهايةُ اختلاق . بين البداية والنهاية لا بدايةَ ولا نهاية . الأمر مجرَّدُ تدبيرٍ من الخيال شاحبٍ أو متألِّقٍ ، ببعض الفروق

في اختيار الكلمات» ، قال فيناكو المبتسم في سخرية .

«ولماذا نحرق الكتابَ ـ النهاية ، إذاً ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟» ، ساءله زاكوف بتحدٍّ .

«اعذرْهُ . إنه يتجاهل مايعرف كعادة الحلاَّقين في أرض السحلبية الأوركيد الزرقاء ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع» ، قالت ذات الأجفان المنتفخة سُود ، وألقت بآخر ورق في يديها إلى اللهب . احتدم راكوف : «أنت غير مُحْتَمَلة ، يازوجتي سود» ، قال . فأمسكت المرأةُ المترهلة بمرفقه : «لذلك احتملْتَني حتى هذه الشيخوخة» .

رمى الآخرون بأوراقهم إلى اللهب ، تحت بصر كلاب الرعاة الرمادية الأربعة ، المقعية إلى جوارهم . هرَّتْ بامتنانٍ للمُطْلق المقامر يرمي بغنائمه الخفية إليها . تمتمت ذاتُ العينين النائمتين آنفاً : «هذه الكلاب مثلنا ، لا تجوع» .

«ماذا قلتِ؟» ، ساءلتها الشديدةُ البياض دورنيما .

ظلت آنفا صامتة .

كررت دورنيما المنتفخة الوجه سؤالَها ، فردت آنفا ذات الشعر الأجعد الرمادي : «لا أعرف» .

«أوه» ، تمتمت دورنيما . «كلَّما قلتِ : لا أعرف ، غدا الأمرُ شيِّقاً ، جذَّاباً ، ممتعاً ، قوياً ، ياآنفا» .

ابتسمت آنفا وهي تمسح براحتيها على صدر معطفها المفصَّل بلا عُرَى ، أو أزرار ، من فراء الثعالب . نظرت إلى زوجها الغائر الوجنتين :

«أتظنُّ أحداً آخر يملك كتاباً ، في أرض السحلبية الزرقاء ، ياقناع الذئب ـ يوها النبيل؟» .

«السِّحْرُ في امتلاك الكتاب أنْ يُحرَقَ . وأنا لم أرَ كتاباً يُحرق . لا أحد يملك كتاباً آخر في أرض السحلبية الزرقاء ، ياآنفا» .

تفكّكت لُحمةُ الليل .

تضعضع . اكتسحتْهُ الشروخ .

انهارَ ، وتناثر .

تقوّض حلقةً حلقةً . تبعثر الليل .

اختلَّ . طاشَ منطقُه .

علّقته يدُ الضوء مجفّفاً على حبال الأركان الأزلية .

نبت صباحُ الخريف ذابلاً ، ذلك اليوم ، في أرض السحلبية الزرقاء .

اتجه الستُّ النساء ، والستة الرجال ، والأربعة الكلاب الرمادية ، إلى جهة الوعر ، شرق ساحة العظام ـ المرايا . خفقتْ حول أجسادهم ثيابُهم الخشنة ، التي من جلود ، وفراء . أنَّتِ النِّعالُ . توغّلوا في الشِّعْب الصخرِ ، ثم مالوا إلى سُهْبٍ مُكْتَسَحٍ بالتوت الوحشي وقد جفَّ ، وتآكل ، على نبتِه المُوْهَن .

«أهذا أقصر الطرق إلى خليج مورتفيك ، ياقناع الذئب ـ يوها النبيل؟» ، سألت دورنيما ، فردَّ الغائرُ الوجنتين : «مامن طريق أقصر ، أو أطول ، إلى مورتفيك . مِنْ حيث نصل إلى مورتفيك يكُنْ هو

الطريق الأوحد إليه» .

«فلنسلكِ السهلَ جنوباً ، إذاً» ، قال راكوف .

«لماذا تريد أن تكون مُطْمـئناً في نوازعك ، ياقناع الثـور ـ راكـوف الباسل؟ قلبٌ مطمئنٌ لا يقودك إلى مورتفيك» ، قال فيناكو المبتسم في سخرية .

«هل الأجـدى أن يقـودني قلب قَلِقٌ ، ياقناع الإوز ـ فـيناكـو الرائع؟» ، ساءله راكـوف ، فمدَّ فيناكو قدمه أمام راكـوف متعمِّداً أن يتعثر بها . همس : «تخلَّ عن قلبك . اتبَعْ مورتفيك إلى مورتفيك» .

توقف بولبون الأحـمر الوجـه . استلَّ من حـزامه ، تحت المعطف ، مدية قصيرة ، وأغمدها في شقٍّ في الصخر . نظر إليه الآخرون بوجوه لا فضول فيها . أوغلوا ، أكثر ، في السُّهب . بلغوا مطلعَ شجر القيقب ـ شجر جدال الخريف بمنطق اللون : ورقٌ أحـمرُ متوهِّجُ الحمـرة بخواطر الذهب فـيه . «أمـعكِ مـدية ، يالولوكـي؟» ، سـأل بولبـون المرأةَ القـويةَ القوام . فأخرجت لولوكي مدية قصيرة من باطن معطفها .

«أغمـديهـا في جذع من هذه الجذوع» ، قال بولبون ، فأغـمدتـها لولوكي في ساق القِيقب .

كل ألف ذراع كان بولبون يوعز إلى شخص من صحبه أن يغمد مديته في جذع شجرة ، وسط وجوه تتأمله بلا فضول . استنفد الاثنا عشر شخصاً مُدَاهم وسكاكينهم . راكوف ، الأخير ، الذي تردَّد قليلاً ، وهو يقلِّب مـديتَـه المعـقوفـةَ النصل كـمنقـار الحَـدَأَة قـبل إغـمادها في

اللِّحاء ، حدَّق بعينين نازفتيْن فراغاً إلى بولبون : «أنحن نترك علامات خلفنا ، ياقناعَ الوعل ـ بولبون الصاخب؟» .

«نعم» ، رد بولبون .

«مَنْ ندلُّ على وجهتنا؟ مَنْ سيسلك الطريقَ هذه بَعْدنا؟» ، ساءله راكوف ، فابتسم بولبون الضيِّق الأجفان : «نحن ، ياقناعَ الثور ـ راكوف الباسل ، مَنْ سيهتدي بالعلامات هذه في العودة إلى أرض السحلبية الزرقاء» ، قال ، وغمزه بعينه .

قهقه راكوف : «إثنتا عشرة مدية؟ كلما أغمدنا واحدةً في شجرة ضاعت الشجرةُ والمديةُ معاً ، ياقناع الوعل ـ بولبون الصاخب . مَن سيهتدي إليها في بحر ورق القيقب؟ أين هي؟ أترى مدية واحدة؟» . قهقه ثانية : «إثنتا عشرة مدية!!! ياللعلامات الساخرة» .

ضحك بولبون : «ظننتُك ستقتنع» ، قال . نَقَلَ بصرَه بين المسالك الظليلة : «أغمِدْ مديتَك في ساق شجرة ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل» ، أردف من غير أن ينظر إليه ، فتقدم راكوف مُدَمدماً : «لقد أغمدتُها» .

عضَّت أوراقُ شجر القيقب الحمراءُ ، بأسنان اللون ، على الريح الرخيَّة ، فتضرَّعتِ الريحُ إلى مغاليق المشيئة .

الخليج التائه

«أهذا خليج مورتفيك؟» ، تمتم ماسيليدي ، الحليق اللحية ، من غير أن يخصَّ أحداً من صَحْبه بسؤاله ، فردتْ نيديداد الممتلئة الشفتين : «أنّى لنا أن نعرف ياشبحَ الزنبق؟» . ألصقت كتفها بكتفه تحت شجرة البندق الباذخة الكثيفة ، متوجهة بعينيها ، كعيون الآخرين ، إلى مسالك البحر المتشعبة مياهاً عن مياه .

مطرٌ ثَرٌّ بسط على الأنحاء شهواتِه ومُزاحَه . تقاربَ الستة النَّفَرُ ـ الصَّحْبُ في الدائرة المشمولة بسُلطة غصون البندق الرادعة قليلاً لهياج الماء . تكلم راموسيراسمو الضخم ، ذو الأنف الأقنى :

ـ لو كان هذا خليج مورتفيك لعثرنا على صيَّادين .

«ربما غادروا ، يانكهة طحين الأرز ـ راموسيراسمو» ، قالت داهناليدا ، ذات الرموش الشديدة الشقرة ، الظاهرةِ من ثقبَيْ قناعها .

«لا أرى أثراً لمقيم أو عابر . هذا المكان لم يُسْكن ، ولم يُهْجَر . هذا مكانٌ ـ عقلٌ ساكنٌ ؛ مكانٌ لم يُمْتَحَن بخيانة» ، قال جيماتيرك ذو الأنف الطويل . نزع قبعتَه الجلدَ السوداء ، الشبيهة بنصف بيضة ، عن رأسه ، ومشى باتجاه برزخ المياه : «سأخوض بحرَ مورتفيك» .

«إلى أين ، يامحيِّرَ شجر القيقب؟» ، ساءله غيرموهالي الأصلع ، ذو اللحية الكثَّة ، فرد جيماتيرك : «إلى بوَّابة الغَرَق . سأفتحها» .

ضحك الآخرون . تبادلوا إشارات ناقصةَ الموازين من عيونهم . ناداه ماسيليدي : «منذ متى ، يامحيِّر شجر القيقب ، أنجزتَ هذا الوشم النافر على لوح خيالك؟» .

التفت إليه جيماتيرك وهو يخوض في الماء بثيابه : «أيَّ وشم تعني؟ أنجزتُ وشوماً كثيرة على لوح خيالي ، ياشبح الزنبق ، في طريقنا إلى خليج مورتفيك التائه . سأعيد خليجَ مورتفيك إلى زريبته البحرية» .

«هِيْه . هيه» ، ناداه ماسيليدي ثانيةً : «عنيتُ الوشمَ الأكثر براعةً ـ وشمَ الفكرة المُهذَّبة حتى الضجر» ، قال ، ثم أوضح : «عنيتُ فكرةَ أن تغرق ، يامحيِّر شجر القيقب» .

غادرت نيديداد موئلها تحت شجرة البندق الباذخة . تقدَّمت صوب برزخ المياه : «ألا ترى أنك لم تُسَلِّ أحداً بعد ، ياجيماتيرك؟ خوضُك في المياه لا يبدو مسلياً حتى لو عثرنا ، هنا ، على صيادين» . تنهَّدتْ . ابتسمتْ : «أغرِقْ نَفْسَك . ليس في مستطاعك أن تفعل

شيئاً . كلُّنا غير مسلِّيْن . مزاجُنا نظيف . .» ، قالت ، فقاطعها جيماتيرك عائداً من الغَمْرِ مبتلاً حتى صدر عباءته البيضاء : «أوافقك يانيديداد . يلزمنا مزاج معتكر ؛ مزاجٌ مختلٌّ ؛ مزاج ملوَّث بونيم الذباب ؛ مزاجٌ مثقوب ؛ مشدوخ ؛ ممرَّغ في ذَرْقِ الغراب . وحدهم معتكرو الأمزجة قادرون على تسلية الآخرين . مزاجُنا نظيفٌ كشقاء» .

لم يعلِّق أحد على زفرة جيماتيرك ، لأنهم انصرفوا ، بأسماعهم ، إلى البشرى الشاحبة في صوت غيرموهالي : «أظنني عثرتُ على أثر آدمييْنَ . انظروا» ، قال مشيراً بإصبعه إلى خَسْفٍ ضئيلٍ في الأرض ، ثم جمع من حول الخسف بعض العيدان المكسورة : «أترون ماأرى؟» ، قال بنبرةِ الصوتِ الفائز .

لمست نيديداد الخسفَ الضئيلَ بقدمها : «أيُّ سنجاب في مستطاعه ، إذا قفز عن أقرب غصن إلى الأرض ، أن يترك أثراً كهذا طوله إصبع ، وعمقه أقل من ضرسك ، يانَفَس الأيل في المغيب» ، قالت ، فقاطعها غيرموهالي مُحْبَطاً : «والعيدان المكسورة هذه ، كيف ترينها أيتها الغيمة في الشروق؟» .

«عيدان مكسورة» ، ردت نيديداد ، ودارت بعينيها على المحيط المبتلّ تحت شجرة البندق الباذخة : «الأرض ملآى بالعيدان المكسورة» .

«أرى جرحاً في شجرة البندق» ، قال راموسيراسمو الطويل ،

وتقرى بإصبعه شرخاً في اللحاء ، فالتفت الآخرون إليه . قرّبوا عيونهم من علامة الفراغ النائم ، ثم ردوا رؤوسهم إلى الوراء خائبين ، إلاّ غيرموهالي : «نعم . هذا حَفْرٌ بالمدية» ، قال مؤكداً صورةَ المعنى في تخمين راموسيراسمو ، فتمتمت داهناليدا : «أهذا حَفْرٌ صنعتْه مديةٌ ، يانَفَس الأيل في المغيب؟ أحفرتَ بمديتك أثراً ، قط ، في لحاء شجرة؟ ماتراه لا يشبه خدْشاً مِنْ ظُفْرٍ حتى» .

حدق غيرموهالي إلى راموسيراسمو بعينين مستنجدتين : «أصحابنا غير آبهين بالتأكد من هذه الآثار» ، قال ، فرد ماسيليدي : «هذا ليس أثرَ أحدٍ . أنت تغدو خائفاً ، يانكهة طحين الأرز» .

«أأنا خائف؟» ، قال راموسيراسمو مستهجناً . «ماالخوف في إيمان قلبي أن ماأراه من خدش في الشجرة ليس إلاّ أثر مدية ، ياشبح الزنبق؟» ، فرد الشاب القصير ، ذو العينين الشهلاوين : « إيمان؟ ، لم أسمع هذه الكلمة في أرض السحلبية الزرقاء . قد أكون سمعتها ونسيتُ . أنت خائف ، يانكهة طحين الأرز . كلَّما ازددْتَ هلعاً مِّما لا تعرف ازددتَ إيماناً به . الخوف مِّما لا تعرفه يَصْلُح ، وحده ، بغلاً لجرِّ إيمانك على عجلات لا تُحصى . أنتَ تصير مؤمناً بكل شيء مذ تصير خائفاً من كل شيء . الإيمان هو الخوف» .

«تبدو مسلياً ، ياشبح الزنبق ـ ماسيليدي» ، قالت نيديداد ، فرد ماسيليدي :

ـ بل يبدو راموسيراسمو ، وغيرموهالي ، مُسلييْنِ . خيالُهما يغدو

أنيقاً . انظروا : حفرة في الأرض بحجم بُندقة . خدْش في شجرة . عود مكسور . . ها . أيُّ صيادين يتركون آثاراً كهذه؟ أكانوا ذباباً ، أم جنادب؟ . انظروا : لا بيوتَ . لا حظائر . لا قوارب . لا مجاذيف مهجورة . لا رماد . لا حطب . لا حبال . لا مراسي . لا سُعال .

«سُعال؟!» همس جيماتيرك مستفسراً ، فردّ ماسيليدي :

- الصيادون يسعلون من استنشاقهم التبغَ الرطب .

«بل التبغ الجاف يثير السعال» ، قال غيرموهالي .

«نَفَسُ البحر يثير السعال» ، قال جيماتيرك .

أغمدت داهناليدا مديتها القصيرة في ساق شجرة البندق : «ها أنا أترك أثر جرحٍ قبالة هذا البحر . سأُرضي القيافيْنَ ، الذين يشبهوننا ، في عبورهم بعد قرونٍ» ، قالت ذات القناع الرقيق ، الطويلة ، الحمراء الأنف . تألّقت نظرتُها المبتلّة بهواء البحر : «من أنتم؟» سألت بصوتٍ يرفرف بخمسة أجنحة .

ابتسموا جميعاً ، ثمّ تصنّعوا البحث عن جواب ، فعادت داهناليدا إلى سؤالها : «من أنتم؟ ستردُّون بجوابٍ أخرق على سؤالٍ أخرق» ، قالت .

«لا» ، قال غيرموهالي ، «لن نخرج عن طور السخرية من أنفسنا في البحث عن أثرٍ للصيادين . أيُّ جوابٍ على سؤالك ، أيتها المعصوبة العينين ، سيخرجنا عن طور السخرية إلى ثقل هذا الخليج» . دار بعينيه من حوله : «فلنبْنِ كوخاً هنا . لنا أمدٌ ندور في فراغ» . تأمّل

أثر كلماته في الوجوه على عجلة : «أن يتيه المرء ، دائراً على نفسه في مكانٍ واحد ، هو علامة لقاء» .

«بِمَنْ ، يا نَفَسَ الأيل في المغيب؟» ، ساءلته نيديداد ، فردَّ الطويلُ المتقوِّسُ الهيكل قليلاً :

ـ لا يهمّ أن نلتقي أحداً . إحساسنا باللقاء ، وحده ، أمرٌ شيِّق .

«مذ خرجنا من أرض السحلبية الزرقاء ، ونحن ممتلئون إحساساً شيِّقاً بالعثور على كلماتك الدفينة ، هذه ، يا نَفَسَ الأيل في المغيب . كلماتك حشدٌ من الغرباء . أمثالنا محظوظون» . قال ماسيليدي متضرِّعاً إلى السماء في سخرية .

رفع غيرموهالي ذراعيه عالياً ، مقتدياً بسخرية ماسيليدي في التضرُّع المُضحك : «فلنبْنِ كوخاً للمحظوظيْن» .

«بأيٍّ شيءٍ نبني كوخاً؟ بسكاكيننا الصغيرة هذه؟» ، ساءلته نيديداد ، فانبرى راموسيراسمو سائلاً بدوره : «ولماذا نبني كوخاً؟» .

صمت غيرموهالي مستنجداً بشجر البتولا من حوله ، فأعانتْه داهناليدا بشيءٍ من خيالها : «لنعيدَ تذكير هذا المكان بأثرٍ ما ، يا نكهة طحين الأرز» .

ابتهج غيرموهالي بنجدة داهناليدا : «هذا قصدي . يحتاج المكان إلى تذكيره بأثرٍ» قال ، فاسترسلت داهناليدا : «إن لم يكن بحاجةٍ إلى تذكيره بأثرٍ ، فسنربكه في الأقل . كلُّ أثرٍ يُرْبِك المكانَ برهةً» .

«نُرْبِكُ المكان؟!» ، تمتم جيماتيرك مستوضحاً ، فردّت داهناليدا :

ـ ألم يُرْبكك المكانُ ، يا محيِّر شجر القيقب؟

«بلى» ، قال جيماتيرك مستعرضاً ببصره مسالكَ المياه . فاستطردت داهناليدا :

ـ مكانٌ يُرْبِككَ قد يَرْتَبكُ أيضاً .

نقل البحر بيدقه من شرائع عقل الماء إلى شرائع عقل البرِّ ، على رقعة اللون المقسَّمة دِيْناً دِيْناً بلا نهايةٍ . وزّع زبدتَه الرطبةَ ، متساويةَ الدَّسَم ، بين بَنَاته ـ السُّفُنِ الغريقة والطافيةِ معافاةً بقلوعها .

تراخى البحرُ الكهل ، مستريحاً في مقعده العريق . هدأ المطر .

صعد البُزَّاقُ الشَّرِهُ بقواقعه سويقاتِ التوت البريِّ .

وضع جيماتيرك ظاهر يده اليسرى على جذع شجرة البندق الباذخة ، وأغمد مديته القصيرة النصل في باطنها .

ارتعدت داهناليدا برهةً ثمّ هدأتْ رعدتُها .

نظر الآخرون إلى جيماتيرك نظرات خرساء . تقدّم منه ماسيليدي وسلَّ المدية من الجرح الأحمر ، الذي لم ينزف : «أهذه بدايةُ اشتغالك مدرِّباً لخيالنا ، يا محيِّر شجر القيقب؟» .

«على أحدٍ ما أن يفعل شيئاً» ، قال جيماتيرك .

«ألا تظننا نفعل شيئاً ، يا محيِّرَ شجر القيقب؟» ، قال غيرموهالي بصوتٍ مُبَعثر . أزاحَ الغطاء الجلدَ ، المطوَّق بسيورٍ ، عن رأسه الأصلع : «قطعنا تسع غاباتٍ ، دائرياً . أعَدْنا ترتيبَ السماء يوماً بعد آخر ، وتأوَّلنا الظلالَ كل شروقٍ ومغيب . نَفَساً نَفَساً رتَّقْنا هواءَ هذا

الشاطىء المديد . صعدنا الشجرَ على الأكمات الجليلة ، والنَّزِقة ، مستطلعيْن علامةً واحدة ، لا أكثر ، نخمِّنُ بها تَبعةَ البحث عن غريب . تضرَّعنا إلى ما يليقُ بضراعةٍ ، وما لا يليق ، يا محيِّرَ شجر القيقب ، ولا تظننا نفعل شيئاً؟! ، هاتِ يدك الأخرى . ضعْها على فخذي هذه» . جثا على إحدى ركبتيه . ألصقَ راحةَ جيماتيرك بفخذه . هوى بمديته مخترقاً اليدَ والفخذَ معاً فطابقهما على تَرَفِ جرح واحدٍ . دمدمَ : «ها نحن نفعلُ شيئاً ما» .

أغمضت نيديداد عينيها من غير فَزَع .

هرع راموسيراسمو فسلَّ المديةَ ، التي جمعت يدَ جيماتيرك وفخذَ غيرموهالي في زفرةٍ صاعدة من فجوة اللحم في كليهما . غمغم : «استعرِضا ما تفعلانه الآن ، على غريبٍ ، أيها الشاحبان . إعثرا على غريبٍ أولاً» .

«وصل غريبٌ» ، قال ماسيليدي هامساً .

صمت الآخرون مترقِّبيْنَ . صدرت حشرجةٌ خفيضةٌ من حناجر الورق القديم على أرض الغابة . ارتفع قرنا أيلٍ متشعِّبان غصوناً صلبةً ـ رسوماً على صَدَفَة الجلال الخفيِّ . حدَّقَ مرتاباً إلى الأشكال الواجمة تحت شجرة البندق . ذكَّرَ خياله بما يعيد قلبَه الحرَّ حَذِراً . تراجعَ . انعطفَ بجسده ليخترق ، خَطْفاً ، حجابَ الظلال المُسدَلَ بين شجرِ البتولا .

هرول جيماتيرك في اتجاه الحجاب ، بدوره . نادى متضرِّعاً : «أيها الغريب ، أين خليج مورتفيك؟» .

عبور إلى دُوْكُون

ثلاث قطرات من الدمع نزلت ، تباعاً ، على المبرد الحجر في يد الرجل المرهق العينين ، وهو يرعى ببصره الأيائل التي ترعى ، على بُعْد ، بين أشجار الصنوبر والبتولا . أيائل بقرونٍ فضَّةٍ لاكقرون جنْسها ، ووبرٍ ذهبيٍّ لاكوبر النَّسل ذاته في أرض سكوغوس ـ إقليم العبث المعتدل .

أية لوعة أيقظ الحيوانُ المشتعلُ القرون بلا لهب في قلبه ـ قلبِ الوريث المُعتَّق بخمائر المجهول الوارث؟ لا أيائل في أرض دوكون ، التي جرَّ منها السفينةَ ، عبر البر ، إلى بحر هِيْلاكْرِيْتُوْتِيْنِيْسْ ، لكنها تشبه ضراعةً مَّا ، مجسَّدةً في شَكلٍ ، رُفِعَتْ دهراً بعد آخر ، بالكلمات المرتعشة ذاتها ، إلى الألمِ المنقِّبِ ، بين متاعه المُبَعثر ، عن نهاية وديعة ، متعَبة من تأمُّل نَفْسها كنهاية .

أيائلُ ضَـراعـةٌ كـانت تتـهـادى وراء حُـجُب الظلال الرقـيـقـة ، ولأقدامها هسيسٌ كهسيس شفرة المدية في احتكاكها بالمبردِ الحجرِ ، حين انحـدرت قطرتان أُخريان من الدمع على النصل المسنون . توقف الرجل المرهق العينين عن سَنٍّ آلته الرهيفة . جمعَ عقلَه وبصرَه في شعاع مضفور استقرَّ على حدبةٍ من الأرض ، في البرزخ ، بين المياه والبر : تماوجَ الماء . خفق خفْقاً مضطرباً . ارتفع قليلاً ثم تقعَّر . خرج رأس رجل تنفَّس كاليائس . شهق فأفرغ الهواءَ من أرقامه الأزلية . أمسك بوحل الشاطىء يجرُّ نَفْسه عليه هارباً مرتاعاً من أن تعيده المياهُ إليها . زحف مَدىً على العشب قبل استيقانه النجاةَ . استلقى لاهثاً .

تسع عشرة برهة انقضت بطيئةً لزجة ، رفع بَعْدها الرجلُ المبتلُّ رأسَه يستجلي مَهبَّ وجوده . استقرَّت عيناه على المُرهق العينين . تراخى عَصَبُه المنقبضُ فاستوى واقفاً في معطفه الطويل ، المتفسِّخ المفاصل . هرول إلى الجالس على الجذع المهشَّم : «لماذا سكونُك؟» ، قال بصوتٍ فيه توبيخ خفيٌّ . دار بوجهه على الجهات فاهتزت خصلُ لحيته وشعره المبتلة الطويلة . «أنا في عجلة من أمري» .

لم يتحرك من الرجل ، الجالس على الجذع المهشَّم ، سوى عينيه وهما تتقرَّيان ثيابَ الرجل الخارج من الماء ملتصقةً بجذعه ، وخطى حذائه المهترىء ، الموحل ، مترددةً ، غريقةً في قلقها تحت ثقل كلماته : «أنا في عجلة من أمري» .

عاد ببصره إلى المدية والمبردِ في يديه . سنَّ المعدنَ الحديدَ على

المعـدنِ الحـجـرِ ، فـأثار سكونُه قلبَ الخـارج من الماء : «ويْلَك . ألا تنهض؟» ، قـال المبتلُّ من شعره إلى حذائه . أمعن النظر إلى المُرهق العينين يغتلي ارتياباً : «لماذا لا تتكلم؟ ألستَ على عجلة من أمرك مثلي؟» . جمع ذيلَ معطفه واعتصرَهُ : «أين الآخرون؟» . تحرك في الاتجاهات كلِّها ، برهةً بعد أخرى ، يقيسها بخياله المتخبِّط : «ربما لم أتعـرَّف إلى اسـمك ، لكنك كنتَ مـعنا تجـر السـفـينةَ إلى هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ» ، قال ، ثم عاد إلى دورته في المكان منقِّباً عن ثغرة في السُّور اللامرئيِّ . وجَّه خطواته إلى الظلال المُلتفَّة لشجر البتولا . دخلها مندفعاً . غاب قليلاً ليعودَ طائشَ النظر من البلبلة : «ألاحظتَ أنني خرجتُ من الماء؟» ، ساءل الرجلَ المُرهقَ العينين . تبدَّل صوتُه مكتسياً نبرةَ الذاهل : «ماذا يفعل هذا البحر هنا؟ تكلَّم ، أيها الشريك القادم معي من دُوكون» ، قال وهو يجثو أمام الجذع المهشم ، واضعاً راحته اليمنى على فخذ المُرهق العينين . تمتم : «تكلَّمْ» . وضع راحته اليسـرى ، في رفق ، على المدية والمبرد يوقف احتكاكَهما العابرَ ، بهسيسه ، كالشفرة على قلبه الخائف : «أين السفينة ، التي جررناها ، ألف فرسخ ، عبر سهول دُوْسْخو؟» .

سحب الرجل المرهق العينين يديه من تحت راحة الرجل الخارج من الماء . حرَّر حركةَ المديةِ على المبردِ الحجرِ ، ارتفع هسيسُ المعدن ثانيةً .

نهض الرجلُ المبتلُّ . مشى في ثقلٍ باتجاه الشاطىء : «أهذا بحر

هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْس؟» ، قال . أطرق يائساً : «مهما يكن من أمرك ، ياشريكي القادم من دوكون ، فأنت لا تتصنَّع ، بهدوئك الثقيل ، ماينبغي أن يُرْبكني . لقد رأيتَ شيئاً هنا . هدوؤك اعترافٌ . صمتُك ثِقةٌ . اسْمعْني . ارفعْ عينيك إليَّ . اسمعْني بهما . اسمعْني بعينيك ، ياابن أرض دُوكون . أستطيع أن أغنِّي من ذهوليَ . الذهولُ يحرِّك عَصَبِ الغِناء في العضل . اللوعةُ تحرِّك عصبَ الغِناء في العضل . الصوتُ عضلةٌ بثلاثة وثلاثين عَصَباً . التائهون ، والمغدورون ، والمنتظرون طويلاً ، والضَّجرون ، والأَرِقون ، والمخدوعون ، والعائدون من نصر بلاغنائم ، والقلِقون ، والهادئون ، والمنكوبون في الحبِّ ، والمنهوبون ، والوادعون الرقيقون ، والغرباء ، والجزَّارون في أقبية المسالخ ، والأسرى ، والنّوتيون ، والقيَّافون ، هؤلاء يستطيعون إحصاءَ الأعصاب بتمام عَدَدها ، في الصوتِ ـ العضلة» .

سرح الرجل المبتلُّ ببصره على الغَمْرِ العريق . نفض بيده قطراتِ ماءٍ استقرت على نهايات شعره المتفرِّق خصلاً : «أكره البحر» ، تمتمَ . «كيف اقتنعتُ أن أجرَّ سفينةً ، عبر سهول دوسخو ، إلى البحر؟ البحر ذاكرةُ أشباح . الأشباح لا يتذكرون إلاَّ البحر . كل غيبوبة تبدأ بمياه تطفو على الذاكرة . الوجودُ عقلُ مياه ؛ عقلُ عبثٌ كلَّما ترامت المياهُ واتَّسعتْ . فوقنا مياه . نحن في سهولٍ فوقها مياهٌ معلَّقةٌ سقفاً بلا أعمدة . نحن مُهدَّدون بالمياه ؛ موعودون بالمياه كحظْوة . أجسادنا مثقلة بالمياه ، والبحر تذكير بذلك . البحر تذكيرٌ بأننا لا نملك إلاَّ ذاكرات

أشباح» .

وضع قدمه في الماء ، وعاد فاسترجعها . التفت بوجهه إلى الرجل المرهق العينين : «لماذا غادرتُ دوكون إلى البحر؟» ، قال . أغمض عينيه : «أظنني أردمُ بعقلي مايحفره لساني . لساني على صواب ، وعقلي على خطأ . المسألة ليستِ البحرَ ، ياابن أرض دوكون» . فتح عينيه : «المسألةُ ليست التماثيلَ المعدنَ ، المنتصبة قبالة بحر هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ ، بل السفينة . المُعضلة كلها هي السفينة ، التي لم نكن في حاجة إليها ـ سفينةُ التيه في البرِّ . مِنْ بلوغ السفنِ البرَّ تبدأُ المعضلة . على السفن أن تبقى في مياه لا يُرى منها البرُّ . ينبغي أن لا تصل السفنُ إلى برٍّ . البرُّ مُحْتَملٌ بلا سُفن ، والسفنُ مُحْتَملة بلا برٍّ . أما المياه فهي حُكْمٌ بالإقامة نستخلصه من الرحيل بلا رغبةٍ في الرحيل» . فتح معطفه المتفسِّخ المفاصل يستعرضُ البَلَلَ على الهواءِ : «أنا أخلط على لساني صوابَهُ بشبهات عقلي ، ياابن أرض دوكون . كيف خرجتُ من المياه؟ ماذا كنتُ أفعل في المياه؟ لماذا كنتُ هناك؟ أخرجتَ ، أنتَ ، من المياه ، أيضاً ، ياابنَ أرض دوكون؟» ، قال في تعبٍ . تراخى هيكله تحت ثقل أعماقه . تكلَّم ، من جديد ، بصوتٍ نازفٍ : «يبدو الأمر كلُّه مملاً : البحر مُملٌّ . البرُّ مملٌّ . السفن مملَّة . نحن مملُّون . إنْ لم نكن مملِّيْنَ اليومَ نَصِرْ مملِّيْنَ غداً . سأمزِّق هذا البحر كوسادة . أعطني مديتك» ، قال ، متقدِّماً صوب الرجل المرهق العينين .

أُجفل الرجلُ المرهق حين مدَّ الآخرُ يده إلى المدية . نهض محدِّقاً فيه ببصرٍ مَزْجٍ من الإمتعاض والشرود ، متجاوريْنِ ، على نحوٍ لا يتصالحان فيَّ النظر عادةً . تمتم الرجل المبتلُّ : «أنت تسمعني بعينيك ، الآن» .

تقشَّرتْ ظلالُ البتولا كقشر الكستنة فظهرتِ الأيائلُ . تقدَّمت سارحةً في اتجاه الشاطىء . التفت الرجل المبتلُّ إليها بجسده كلِّه مُستثاراً . غَمَرها بخيال قلبه ـ قلب سهول دوكون المُعلَّقة بحبالٍ ترابٍ فوق بوَّابات الأرض . ارتعش شهوةً ، أو شوقاً . «هاهي» ، قال مشيراً إليها . مشى كأنما يسبقها إلى الشاطىء ليلتقيها ، وهو يرمي خلفه كلماتٍ مُؤتَمَنةً على معناها : «أنا في عجلة من أمري» .

هرول الرجل المبتل . ركض مندفعاً إلى المياه . اقتحمها . شقَّها برهةً ، ثم انطبقت عليه . رتَّقتِ المياهُ المياهَ ، من فوقه ، بخيط زَبد .

جلس الرجل المرهق العينين على الجذع المهشَّم . سنَّ المديةَ على المبردِ الحجر تحت شعاع الشمس الخاملة . انكسر الشعاعُ بعد قليل متناثراً في عبور ثلاث غيوم ، دقيقةٍ ، أشبهَ بالسحالي . رفعتِ الأيائلُ أعناقَها متوجِّسةً . تقاربنْ . دار بعضُها حول بعض ثم انسلَّتْ ، صفّاً غيرَ منتظم ، جنوباً ، عبر منعرجات الشاطىء .

ارتفع هسيسُ ورقٍ في ظلال البتولا . تفتَّقتِ الظلالُ عن اثني عشر شخصاً ، وأربعة كلابٍ رمادية ، يتقدمون بخطى متمهِّلة أفرغتها الشيخوخةُ من خمائر العَجَلة . نظر بعضهم إلى بعض حين وقعت

أبصارهم على الرجل المرهق . لكنهم بدوا مشدوهيْن لمرأى الزحافات الستِّ مبعثرة من حول الجذع المهشم ، الذي يجلس عليه الرجل المُرهق . أمسكت إمرأة منهم بكمٍّ شيخ يجاورها : «أَسَماءٌ واحدةٌ تُتْلف خشباً كريماً كخشبِ هذه الزحافاتً ، في ثُلث دورةٍ حول هيكل النجوم ، ياقناعَ الوعل - بُوْلبون الصاخب؟» ، فردَّ الأحمرُ الوجه ، الضيِّقُ الأجفان :

- ربما سماءُ هذا المكان سماءُ خَلٍّ تُفَسِّخُ وتُذيْب ، يازوجتي سَاسْكا .

أطرق الرجل المرهق العينين بعد نظرة مبتورة على هياكل القادميْن . سنَّ المديةَ على المبرد الحجر .

ترميمُ نقوشِ المياه

بأيدٍ خاشعةٍ تلمَّس الإثنا عشر شيخاً خشبَ الزُّحافات المهترئة . أصغوا إليها بسَمَعِ اللحم في أصابعهم . رفعوا المتاعَ ـ الأغطيةَ ، والقِرَبَ الجلدَ ، يستطلعونها فتفتَّتَت ، كأنما تعاقبت عليها أحوالُ حُمَّى من البِلى والنَّخْر عبر سنين . شهيقٌ وزفيرٌ مكدَّسيْنِ زاحما الهواءَ في خليجِ أُودِنْ . اقتربتِ العجوز سُوْد ، المنتفخة الأجفان برغبةٍ لم تروَّ بعد ، من الرجل المرهق العينين : «أيها السيد . .» ، نادته ، فظلَّ على حاله منكبّاً على سنٍّ مديته . «أين أصحاب هذة الزحافات؟» ، ساءلته غير منتظرةٍ أن يرفع وجهه إليها . هرَّتِ الكلابُ الأربعة قليلاً . تشمَّمَتِ الزحافاتِ ، ثم أقعت .

اجتمع الآخرون حول الرَّجل المرهق العينين مُجْتَذَبينَ بسؤال سُوْد . استنطقوا صمتَه بعيونهم الصامتة ، فلم يَحْظوا إلاَّ بالهسيس

الصادر عن المدية والمبرد كاعتراف . تأوّلوا الإعترافَ بالتحديق أحدُهم إلى الآخر تأويلاً أعاد الهسيسَ اعترافاً مُحيِّراً . جثتْ لاهْلا ، القصيرة الشاحبة ، أمام المرهق العينين تستجلي وجهَه المُطرِق : «أين أصحاب هذه الزحافات ، أيها السيد؟» ، قالت بنبرة التوسُّل الخافتة ، فجاءها صوتُ لُوْلوكي ، الطويلة ، البيضاء الشعر :

ـ ربما لا يعرف لغتنا .

«ألا يجدر به أن يُبدي فضولاً ، في الأقل؟» ، قالت لاهلا مُحْبَطَةً . وضعت راحتها على يدي الرجل المرهق العينين فأوقفتْ حركةَ المدية على المبرد . «فيمَ استغراقُك ، أيها الغريب؟» ، تمتمتْ .

سحب الرجل المرهق العينين يديْه من تحت راحتها في هدوء . أبقى بَصَره خفيضاً .

نهضت لاهلا متثاقلةً . دلقت عليه ، من عينيها الواسعتين الخضراوين ، استياءَ أعماقها : «أنت منكوبٌ بحمَّى البرزخ ، أيها الغريب» .

«أنحن الغرباء ، أم هو الغريب ، يالاهلا؟» ، ساءلها زوجُها لُوْ ، فردت النحيفةُ الشاحبة : «انظرْ إلى مديته العريضة الشفرة . مديته ليست من صناعة إقليم سكوغوس ، يا قناع العقعق» .

«وماذا لو باتوا يصنعون مُدىً كهذه في إقليم سكوغوس؟» ، ساءلها راكوف المتخلِّع الأسنان . أردف : «من أيِّ صَدْعٍ في صخور أرض السحلبية الزرقاء استخرجتِ بإبرتك «حمّى البرزخ» هذه؟» .

قرّب رأسه منها ساخراً : «أترينَ إبرتَك ، في هذا العمر ، يالاهلا؟» . ضحك بصوتٍ خفيض . «أكثرهم هَوَساً بالتوريات ، في «ساحة العظام ـ المرايا» ، لم تستخرج إبرةُ خياله ، من ثقوب العقل ، شيئاً يُدعى «حمى البرزخ» . لاهلا ، يالاهلا ، أنتِ ثقبٌ في ماء» .

«أتعرف يا قناعَ الثور ـ راكوف الباسل ، ما هو الماء؟» ، ساءله فيناكو ، المبتسم ، أبداً في سخرية . استرسلَ : «انظرْ إلى الغَمْر الشاسع هنا . لا معنى آخر للمياه إن لم تكن المياهُ عينَ الأرض الموكولة بمراقبة السماء . إذا سَهَتِ الأرضُ عن النظر سقطت السماءُ ، يا قناع الثور ـ راكوف الباسل . أصِرْتَ تعرف الماءَ الآنَ؟» . فردّ راكوف الأفقم الفم :

ـ لم تكن بي حاجةٌ إلى أن أعرف الماء ، يا قناع الإوز ـ فيناكو الرائع . وليست بي حاجةٌ إلى ذلك الآن . أُفضّلُ الماءَ بلا تفسيرٍ ، حتى لا أجعل السماءَ لعبةً أرضية .

خلع فيناكو معطفه ، بغتةً ، وضرب به الأرض مراراً ، في صخب . فتح فمه مذهولاً وهو يقتربُ من راكوف : «ماذا قلتَ يا قناع الثور ـ راكوف الباسل؟» . نظر إلى الآخرين بعينين تتفجّران مرحاً : «أسمعتم ما قاله قناع الثور؟ لا يريد أن يجعل السماءَ لعبةً أرضية!!! مَنْ ألهَمَ لسانَكَ نطقاً مدهشاً كهذا؟ أنت مدهشٌ اليوم» . أمسكَ بذراعِ سِيلْ المتآكلِ اللحية : «اعطني مِدْيتكَ لأحفرَ وشماً على لحمي ذكرى ما قاله راكوف اليوم» ، فجذبَ سيل ذراعه متبرّماً : «أين

مديتك ، يا قناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟ لا مدية مع أحد . أحفرْ وشماً بأسنانك على معصم السيدة لولوكي» .

لم يكترث فيناكو بكلام سيل . عاد إلى حبوره وهو يقرِّبُ وجهه من راكوف : «السماءُ أرضُ النبات الذي نزرعه ، أبداً ، في غير موسمه . السماء ، حقاً ، لعبةٌ أرضية ، يا قناع الثور ـ راكوف الباسل» .

«ولماذا ليست الأرضُ لعبةً سماوية ، يا قناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟» ، ساءله لُوْ البدين ، ذو اليدين المرتعشتين ، فردّ فيناكو :

ـ لأن السماء تتحدث باللغة المموَّهة لخلائق الأرض ، من غير أن تعرف أنها مموَّهة .

«أيُّ خيالٍ تخلطون في مَرَقه توابلَ سمائكم وأرضكم معاً؟» ، قال يُوْها الغائر الوجنتين ، معترضاً استرسالَ الألسنة في عُرُوْضها . «أنتم تتدرَّبون على حيلةٍ هنا . سماء وأرض تتكلمان لغة واحدة . ذلك هو الأمر . واللعبة كلُّها مُرْتَجَلة» .

«أية لعبة تعني ، ياقناع الذئب ـ يُوْها النبيل؟» ، ساءله فيناكو ، فرد يُوْها :

ـ أن تتكلم السماء والأرض لغةً واحدةً ، تلك هي اللعبة .

نفخت لولوكي من فمها هواءَ البَرَم : «أتسمعن ، يانساءُ ، صريرَ خُصى أزواجكنَّ؟» ، فردتْ لاهلا بتشفٍّ : «بل نسمع نشيشَ الخُصى في مقلاةٍ بلا زيت» .

«أُفَضِّلُ سماعَ صريرها ، يالاهلا» ، قالت لولوكي .

«بل نشيشُها» ، ردت لاهلا .

ضرب راكوف براحته على صدره مقاطعاً : «أنتِ بدأتِ تقليب هذه الخُصى الحديدية في المقلاة ، بلا زيت أو زبدة ، يالاهلا ، بما سمَّيْتِه «حُمى البرزخ» . أنتِ ثَقْبٌ في ماء» . شدَّ جذعَه المتراخي : «فليرفعْني أحدُكم على ظهره لأسمع حديثَ السماء . وليحفُرْ أحدكم حفرةً أسمع فيها حديثَ الأرض . سَمَعي ضعيف» ، قال متهكِّماً ، والتفت إلى يُوها الحسير البصر : «لم أنتبه أنك كنتَ تُصغي إلى أحاديث السماء ، وأحاديث الأرض ، ياقناع الذئب ـ يوها النبيل . من أيِّ فمٍ تتحدث السماءُ؟ من أيِّ فم تتحدث الأرض ، فسمعتَهما؟» .

«سمعتهما من فمٍ واحدٍ : فمك ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل» ، ردَّ يوها .

«لم تسمع من فمي إلاَّ شتائم الموتى» ، قال راكوف ، فردَّ يوها :

ـ ذلك ماعنيتُه .

دارت لاهلا من حول الزحافات المهترئة فنهضت الكلابُ تدور معها : «ساعدنني يانساء . فلْنهشِّمْ بعضها . سأصنع مقعداً لهذا الغريب» ، قالت .

لم تسألها النساءُ عن زفير الحكمة في هواء أنفاسها . دُوْرْنيما ، الشديدة البياض ، خلَّعت مقعد إحدى الزحافات بكسر عارضتيها ، من الجانبين ، ركْلاً . آنفا ، ساسكا ، لاهلا ، سُود ، لولوكي ، حذوْنَ حذوها .

انتقت لاهلا من الحُطام خشباً لم يتقوَّض تماماً بعدُ . حملتْه تباعاً إلى البرزخ الطين بين المياه والبرِّ تتبعها الكلاب جيئة وذهاباً ، ثم نضَّدتْه ركائزَ ودعامات ثُبِّتت فوقها رفاً مستوياً . عاينتْ ماصنعتْه . اصطفت النساءُ بإزائها يعاينَّ ، أيضاً ، ماصنعتْه . تأمل الشيوخُ ، بلا فضول ، نساءَهم النقوشَ المتآكلة قليلاً على لوح وجودهنَّ .

«ماذا يفعلن؟» ، تمتم يُوها الغائر الوجنتين .

«يتسلَّيْنَ» ، قال فيناكو .

تقدمت النساء من الرجل المرهق العينين . أحطْنَ به . آنفا الممتلئة ، ولاهلا النحيفة ، وضعتا يديهما على عضديه ، من الجانبين ، في رفقٍ كثير ، تحثَّانه على النهوض ، فنهض الرجلُ وديعاً ، بلا اعتراض . تمتمت آنفا : «أتظنين صواباً مانفعله ، يالاهلا؟» ، فردت الواسعة العينين الخضراوين : «البرزخ مكان يثير الذاكرة . قد يُفيدنا بجوابٍ إن نقلناه إلى هناك» .

ثماني عشرة خطوة فصلت المقعدَ الجديد للمرهق العينين ، المحدِّق في قسوة إلى المياه ، عن الجذع المهشم الذي غادره . جلس الرجل . غطى رأسه بخماره الجلدِ ، ثم انكبَّ ، من جديد ، على سنٍّ مديته . تراجعت النساء عنه إلاَّ لاهلا القصيرة الشاحبة . قرفصت إلى جوار المقعد محدِّقةً إلى مياه الخليج : «ماذا ترى أيها الغريب الآن؟» . دارت بوجهها إليه فألْفَتْه مُطرقاً ببصره إلى يديه المنشغلتين بالمدية والمبرد . تمتمت ثانية : «ماذا ترى أيها الغريب؟ أُناشِدُك أن تتتبَّعَ بعينيْ قلبك

أولئك الذين تركوا زحافاتهم هنا . كيف جاءوا؟ كيف غادروا؟ إلى أين؟» .

اعتُصِرتْ ظلالُ شجر البتولا بأيدي أقدار الظلّ ، فانسكبتِ الأيائلُ قطراتٍ أنيقةً من أباريق الشكل الحيواني . خرجت بقرونها الفضّةِ ، وأوبارها الذهبِ ، من خيامها اللامرئية ، متهاديةً في العراء المعشب بلا توجُّسٍ . سَرَحتْ ترعى فلولاً حتى مُنْعَرجاتِ الخليج ، فانتدبتِ النساءُ فضولَهنّ المَرِحَ إلى السِّرب . همسنَ إلى الكلاب أن تبقى خرساء فخرستِ الكلابُ . مشيْنَ صوبَ الأيائل في حذر ، وجلسن يرقبْنَها . وشى بهنّ خيالُ الإنسان إلى خيال الحيوان ، فلم يُنْكِرْنَ الوشايةَ : قبلْنَها مغتبطاتٍ .

«إنهنّ يتسلَّيْنَ» ، كرّر فيناكو كلماته .

«فلنتسلّ نحن ، أيضاً» ، قال راكوف .

«أنتَ ، نَفْسُك ، تسليةُ الوجود ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل ، فلا تطلب تسليةً تزاحمك على الوجود . إبقَ فريداً» ، قال فيناكو الساحر .

حكّ راكوف صدرَه ، تحت المعطف . استنجد بالتوريات الدفينة في خياله الكتيم فلم تُنْجِده . تمتم : «أأنت تتعالى على التسلية ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟ لاتبدو لي جاداً إلى هذا الحد» .

«أسأتَ فهمي . أنا من تلزمه تسليةٌ صاخبة ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل ، لأنني لا أملك ما أخسره . لا تسليةَ ستزاحمني على

وجودي . لستُ فريداً» ، قال فيناكو بلسان التوضيح المُشْكِل .

تلفَّت راكوف من حوله في بَرَم . فكَّ حزامه الجلدَ عن خصر معطفه ، وتقدم صوب الرجل المرهق العينين : «سأقيِّد الغريبَ» .

بوغِت الرجال الشيوخ . «هذا أوَّلُ الهذيان ، في هذه الرحلة» ، قال يوها الغائر الوجنتين موبِّخاً ، لكن راكوف بدا مصمِّماً على فكرته باستعجال خطواته . ناداه سِيْل ، المتآكل اللحية متهدِّداً : «سنقيدك ، أنتَ ، إذا قيَّدتَ الغريب» ، فرد راكوف :

ـ قيِّدوني بعد فراغي من تقييده .

«ماغايتك من تقييده؟ كنتَ تتحدث عن تسليةٍ ، لا عن تعنيفٍ» ، قال بولبون ، الأحمر الوجه ، فردَّ راكوف :

ـ سنبدو جاديْنَ في مساءلته عن هذه الزحافات . علينا أن نبدو جاديْنَ كي يعترف ، والإعتراف تسلية ، ياقناع الوعل ـ بولبون الصاخب .

«ماذا لو كان هذا الغريبُ أخرس ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل؟» ، قال لُوْ ، ذو اليدين المرتعشتين ، فرد راكوف الذي وقف خلف الغريب :

ـ سيعترف بصوتٍ أخرس ، وسنعرف ، إذاً ، أنه أخرس .

«بِمَ يعترف الأخرسُ؟ أمْ تُحْسِنُ قراءةَ الصوتِ الأخرس ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل؟» ، ساءله يُوْهَا .

مشى لُوْ البدين صوب راكوف . قال بلسان المتساهل قليلاً :

«حسناً . إذا أوثقْته فُكَّ عنه الوثاق سريعاً ، ليبدو الأمرُ ممازحةً لا أكثر» .

«ماذا تقول ، ياقناع العقعق ـ لُوْ المهذَّب؟ أتوافق راكوف على إرهاق هذا الغريب؟» . قال بولبون مستنكراً ، فردَّ لُو : «لن نُرْهقه ، ياقناع الوعل ـ بولبون الصاخب . سنُبدي للغريب قَدْر مانستطيع من سلوك المزاح في تقييده . سيفهم الغريب ذلك» .

احتدم راكوف : «إذا بدا الأمرُ مزاحاً ، فلِمَ يعترف الغريب؟» ، قال ، ثم سارع إلى تطويق الرجل المرهق العينين بحزامه ، فوق الصدر . بَكَلَ الإبزيمَ ، وتراجع يرى إلى أمره بعد التقييد .

لم يتحرك الرجل المرهق العينين ، المطوَّق العَضُدَيْنِ إلى جانبيه . استرسل في سنٍّ مديته .

حَدَست النساءُ ماأرابهنَّ من حلقة الرجال الشيوخ قبالة المياه . نهضن مستعجلات تسبقهنَّ خُطى ساسْكا الطويلة ، الرقيقة الوجه ، التي بلغت حلقةَ الشيوخ . شقَّت الحلقةَ مستطلعةً قبل أن تصرخ : «أيُّ أذىً تُلحقون به ، يامَجَامرَ الشرِّ؟» ، فهدَّأها لُوْ البديْن : «لا تأخذي الأمرَ على مَحْمَل ماترِيْن ، ياساسكا . إنه مزاحٌ . .» ، قال ، فقاطعتْه لاهلا ، وهي تصدمُ كتفه : «لماذا لم يقيِّدوك أنت؟ فليتَسَلَّ أحدُكم بالآخر ، لا بهذا الغريب» .

«من فعل هذا؟» ، ساءلتهم لولوكي ، فانبرى راكوف مستَفَزّاً :

ـ كاد أن يعترف ، لكنَّكنَّ أفسدتنَّ الأمر .

«إنه يهذي» ، قال سيل .

«بِمَ يعترف ، يازوجي راكوف؟» ، ساءلته سُوْد المنتفخة الأجفان ، فرد راكوف :

ـ بأمر أصحاب الزحافات .

«زوجك يهذي ، ياسُود . إنه يختلقُ . خيالُه جافٌ كحنجرته» ، قال سِيْل .

اقتربت لولوكي من الرجل المرهق العينين . حلَّتِ الحزامَ الوثاقَ ، ورمت به إلى المياه . وضعت يدَها تحت إبطه تُنْهِضُه فنهض . عادت به ، في أناةٍ إلى الجذع المهشم ، تتبعها الكلابُ الرمادية ، فالنساء الأُخريات ، اللواتي تعالت تمتماتهنَّ استياءً .

ألقى فيناكو ، المبتسم ـ أبداً ـ في سخرية ، بصَدفةٍ التقطها من العشب ، إلى المياه : «عودي فارغةً إلى الفراغ ، ياابنتي» ، قال . مسح يديه بجانبي معطفه : «خليجٌ حزين أنت أيها الخليج» .

التفت إليه بولبون الضيق الأجفان . أصغى إلى همس المياه في صوت فيناكو . «كيف يبدو لك الخليجُ حزيناً ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟» ، فرد الضيِّقُ الأجفان :

ـ أن يجلس غريبٌ كهذا هنا ، قرب زحافات مهترئة لها رائحة الخليج ذاته ، يجعل الخليجَ حزيناً ، ياقناعَ الوعل ـ بولبون الصاخب .

«خليج ترعى فيه أيائل كهذه ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع ، لايكون حزيناً» ، قال لُوْ مصحِّحاً مااعتقدَهُ عثرةَ خيالٍ لدى صاحبه ،

فرد فيناكو :

ـ ذلك يضيف كآبة إلى حزن هذا الخليج .

«بل نحن الكئيبون» ، قال يُوها الغائر الوجنتين . أردفَ : «فلْنغادرْ هذا المكان» .

«أقَبْلَ أن نعرف شيئاً عن الزحافات وأصحابها ، ياقناعَ الذئب ـ يُوها النبيل؟» ، ساله لُوْ ، فرد يوها :

ـ أيهمُّ أن نعرف شيئاً عن أيِّ شيء ، الآن ، ياقناع العقعق ـ لُوْ المهذَّب؟ فلنغادرْ هذا المكان .

هرَّت كلابُ الرعاة الرماديةُ الأربعة . هاجَ خيالُها فاهتاجت حناجرُها . نَهَرتْها النساء ، كلٌّ واحدة من صوب ، بلا جدوى . استشاط وجودُها الحيوانيُّ سُعاراً في تأكيد حالها المُستثارة . كادت صدورها تلتصق بالأرض وهي تتقدم ، شبْهَ زاحفةٍ ، إلى حيث ترعى الأيائل . أزبدتْ أشداقُها ، وتطاير اللعابُ .

«مابها؟» ، قال فيناكو المبتسم في سخرية . ردَّ على نفسه نيابةً عن أيٍّ آخر : «لقد علِقتْ في شبكة الشكل» .

«أيةُ توريةٍ هذه ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟» ، ساءلته دُوْرنيما المنتفخة الوجه . فانبرى لُوْ متكلِّماً : «إنه يراها بعقل الحيوان فيه ، يادورنيما» .

«بل أراها بعقل وجودها في شبكة الشكل ، ياقناع العقعق ـ لُوْ المهذَّب» ، ردَّ فيناكو . «الأيائلُ استدرجتْها إلى جَمَالٍ مُعَذِّب» ، قال

مستطِرداً .

أصدَرَتْ لاهلا ، النحيفة الشاحبة ، مايشبه هريراً ، بدورها : «لم يستدرجْها إلى الهياج إلاَّ حُمَّى البرزخ» . هُرعتْ بخطىً ثقيلة إلى الكلاب تردعُها ، لكن الكلاب وثبتْ هاذيةً في اتجاه الأيائل ، التي وثبتْ متفرِّقةً في أنحاء البر ، إلاَّ واحداً خاض في المياه ، فخاضت الكلاب الأربعة خلفه في المياه .

اغتلى الذعرُ في الزبد . تشتت الخيالُ الأزرق للخليج قليلاً ثم استُجْمعَ موجةً خفيفةً إثْرَ موجةٍ خفيفة ، في حلقاتٍ تكسُر الواحدةُ الأخرى بأسنانها المعتكرة من فورة الطين حول الأجساد الحيوانية .

غاص الأيل .

غاصت الكلابُ خلفه .

رتَّقتِ المياهُ جروحَها بخيوط الزبد ، ومسحتِ الخدوشَ بزيت خيالها ، فأعادت اللَّمْعةَ إلى سطح الغَمْر .

صُعق الإثنا عشر الشيوخُ . تمتم يوها الغائر الوجنتين : «فلنغادر هذا المكان» ، فأجابته من الجَمْع سِاسْكا الطويلة : «حسناً» ، وأومأتْ إلى النساء برأسها : «مِنْ هنا يابنات القمر» ، قالت وهي تتجه إلى الشاطىء ، فتبعتْها الأُخريات وسط الوجوم في أعين الرجال .

«إلى أين تمضين؟» ، ساءلهنَّ سِيْل المتآكل اللحية باستنكار على سلوكهنَّ وجْهَةَ المياه ، فردت لاهلا : «أيهمُّ أين نمضي ، الآن ، ياقناع السنجاب ـ سيْل العالِم؟» .

«أنتن تتجهن إلى المياه» ، قال سيل بلسان قلقه مِمّا حدث للكلابِ والأيل ، قبل قليل . فأجابت ساسكا : «كنا في البرِّ طويلاً . مايهمُّ إنْ سَلَكْنا طريقَ المياه . أنتم لا تخشون البَلَل ، ياأبناءَ النجوم . أليس كذلك؟» .

تبادل الرجال الشيوخ نظرات التقدير المُتَخَلْخِل ، بلا اعتراضٍ ، أو موافقة . أحصوا المعاني ، التي يتوجب للعقل أن يكافىء بها عبثَ المكان ، صامتيْنَ . تكلَّم لُوْ :

ـ أحدث أمرٌ مّا قبل أن نغادر أرض السحلبيةِ ـ الأوركيدِ الزرقاء؟ خيالي مقامِرٌ اليوم بصورٍ يملكها ، وصِوَر لا يملكها .

ردَّ فيناكو ، المبتسم في سخرية ، من غير أن يرفع بصره عن النساء وقد بلغن البرزخ بين البرِّ والمياه : «أنت لا تسأل ياقناع العقعق ـ لُوْ المهذَّب ، بل تختبر مَلَكةَ الحُكْم على مقادير النهاية ، من غير استشارة النهاية» .

«مَنْ يستشير النهايةَ ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟ بأيِّ عِلْمٍ نستشيرُ النهايةَ؟» ، قال راكوف .

«كلُّنا نستشيرها ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل . مُذْ كانت النهايةُ مقاديرَ من أوزانٍ ومكاييل غدتْ استشارتُها ممكنة بميزان بائع اللحم ، ومكيال بائع الحليب» ، ردَّ فيناكو .

حَمْحَم راكوف بصوتٍ فيه نبرٌ من حنجرة الحصان : «أَبِعيارٍ حديدٍ وازنتَ النهايةَ ، أمْ بكيْلٍ طاسةٍ ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟» .

«بلْ كِلْتُها في خوذة» ، رد فيناكو .

نفخ بولبون ، الضيق الأجفان ، هواءً مملَّحاً من رئتيه . تمتم متوجهاً بكلامه إلى فيناكو ، وهو ينظر إلى النساء ، وقد خضْنَ في الماء حتى ركابهنَّ : «هل النهاية ، التي تعنيها ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع ، سطرٌ من علومك في التداوي بالأرقام؟ كنتَ تزعم أن للأرقام خصائص الأدوية ، حتى أننا ملأنا جدران البيوت برسوم الأرقام ، ونحتنا من أشكالها حجارة ، وخشباً ، أحطْنا بها أسرَّتنا . كتبناها بسُخام الشحم على عوارض الأبواب . لقد تخيَّلنا للأرقام عيوناً ، وأجنحة ، وقروناً ، وثمراً ، وزعانفَ ، وأظلافاً ، ووبراً ، وأصواتاً مدرَّب بلسان الريح الكبرى ـ ريح المكان المهجور ، وأثداءً ، وفرُوْجاً ، وسكاكين . رأينا الأرقامَ ، بخيال عِلْمك في الأدوية ، لحماً مجفَّفاً ، وحساءً ، وأبخرةً في قُدُور الأسلاف ، وصقورَ صيدٍ ، ونوافذَ ، وحبالاً لرفع الماء من الآبار ، وملحاً نرشُّه على كل شيء ، حتى العسل» .

«توقَّفْ قليلاً . تمهَّلْ ، ياقناع الوعل ـ بولبون الصاخب» ، قال فيناكو مقاطعاً ، ثم استرسلَ : «أنت تمضي أبعد من اقتداري على اللحاق بكلماتك . تتدحرج فكرتُك فتتدحرج أنت معها . دعِ الأرقامَ وشأنَها . لاتستحضِرْها إلى هذا الخليج» ، استنشقَ هواءَ التوريات الصغيرة ، واسترسل ثانيةً : «هذا الخليج عقلٌ ، وأنت تخاطبه الآن ، ياقناع الوعل ـ بولبون الصاخب» .

«إن كان هذا الخليج عقلاً ، فهو مؤرَّقٌ بالتأكيد . لكنني أخاطبك

أنت ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع» ، قال بولبون .

«دعوا الخليجَ في حاله» ، هتف لُوْ ذو اليدين المرتعشتين ، محدِّقاً إلى النساء وقد بلغ الماءُ خواصرهن . عاد إلى سؤاله ، الذي كادت تفرمُه مدينةُ المحاورات المثلومةُ : «أحدث شيء مَّا قبل أن نغادر أرض السحلبية الزرقاء؟» ، قال . وجَّه إصبعه إلى فيناكو : «لا تُجِبْ أنت ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع . خيالُك ـ كخيالي ـ مقامرٌ بصورٍ يملكها ، وصورٍ لا يملكها» .

«إن أردتَ جواباً ، عليك توجيه السؤال إليَّ ، ياقناع العقعق ـ لُوْ المهذَّب» ، قال فيناكو ، فردَّ لُو بحركة طَرْدٍ من يده : «لا أريد جواباً» .

«في الأرجح حدث شيء ما» ، قال فيناكو ، فاحتدم لُوْ :

ـ لم أسألْكَ . لا أريد جواباً .

«تصيرون مُضجرِيْنَ» ، قال يُوها الحسيرُ البصر . ضيَّقَ مابين أجفانه كي يحصر مشهدَ النساء ، في المرمى الذي تقدر عيناه على تسديد شعاعهما : «أَغرِقْنَ ، أمْ بعدُ؟» ، تساءل ، فردَّ فيناكو تمتمةً : «بلغ الماءُ صدورهنَّ ، ياقناع الذئب ـ يُوها النبيل . لكن لا تقلق . سيُغْرِقْنَ الخليجَ قبل أن يَغْرَقْنَ» .

استدار راكوف منفصلاً عن الرجال الشيوخ المتتبِّعيْنَ ـ بسَمَع خيالهم ـ توريات المياهِ مُرسلةً دوائرَ حول النساء . مشى مُغَمغِماً : «هذا الغريب لا يُطاق» .

التفت الشيوخ إليه مستقرئيْنَ الباعثَ إلى غضبه المفاجىء .

حاروا وهم يرونه يبعُجُ الأرضَ بَعْجاً بعقبيْ حذائه كأيلٍ يتشمَّمُ هواءَ السِّفاد . بلغَهم صوتُه المشدودُ وَتَراً يكاد ينقطع : «سأسلُبُه مديتَه ومبرَدَه . سأسلُبُه سِرَّه» .

هُرِع سِيْل المتآكل اللحية مقشِّراً بمدية قلبه الخفيَّة كيانَ راكوف ظلاً ظلاً حتى النُّواة : «إن لَمَسْتَ الغريبَ جَلَخْتُ عظامَك ببرده ، وأفرغتُها من النِّقْيِ» ، قال . أمسك بمعطف راكوف : «سأفرغُ خيالَك ، أيضاً ، من الصُّوَر» .

عَلَتْ صرخةٌ من فم بولبون الأحمر الوجه : «انظروا» . استدار الشيوخ إلى حيث يشير ، فرأوا أنفاراً ستة تفتَّقت عنهم ظلالُ البتولا .

شقَّت الهمهماتُ ثيابَ الهواء .

عُرِّيَ الهواءُ .

رقَّتِ الأصواتُ في الحناجر بعد ذهولٍ خشنٍ ، وتقاربت أجسادُ الشيوخ الرجال والنساء ، اللواتي أخرجتهن صرخةُ بولبون من الغَمْرِ أنصافَ ذائباتٍ ، في ثيابهنَّ الذائبةِ ماءً .

تقدَّمتْ هياكلُ الستةِ الأنفار قليلاً . وجَمَتْ تتأمَّلُ جَمْعَ الشيوخ الإثني عشر . تمتم الشاب الضخم ، ذو الأنف الأقنى ، بصوتٍ مصعوقِ النَّبر : «ماذا يفعلون هنا؟» ، فردت الفتاةُ الممتلئة الشفتين ، الواقفة لصقه : «ما تخمينُكَ ، يانكهةَ طحين الأرز - راموسيراسمو؟ إنهم يتتبَّعوننا» .

المدينةُ ـ الرؤيا

فِلِزٌّ ثَمِلٌ فِلِزُّ الحديد . فِلِزٌّ قُدِّرَ لأحواله الأنثى أن تختلط بأحواله الذَّكَر . حدادو أرض دوكون لم يصنفوه فلزاً خنثى ، بالرغم من اجتماع هاتين الخصِّيصتَيْن فيه على التساوي ، لأنهم تحسَّبوا لصيروته أنثى إن استحالَ ـ من غير تنقيته ـ حديداً مسبوكاً ؛ ولصيروته ذَكَراً إن استحال ـ بعد تنقية ، وتصفيةٍ ـ فولاذاً مسبوكاً . والعارفون ، من هؤلاء الحدادين ، بعلوم الأمزجة في المعادن ، يميلون إلى مجاملة التوازن الثَّمِل في هذا الفلز ، تحديداً ، ورعاية طباعِه المتفرِّعة عن عقل الصوت الكُلِّيِّ . فإذا صُهِرَ الفلزُ في فرن لا يصله شعاع من الشمس ، كان لصدى احتكاكه بجسم صلبٍ آخر ـ بعد السبك ـ صوتُ الببغاء الأخضر . وإنْ صُهِرَ في مكان مضاء ، كان لاحتكاكه بجسمٍ آخر ـ بعد السَّبْك ـ صوتُ القُمريِّ . وإنْ صُهِرَ في فرن تبلغه الريحُ ببعضٍ

الغبـار ، كـان لاحـتكاكـه بجـسم آخـر ـ بعـد السَّبْك ـ صوتُ طائر الحاكي . وإنْ صُهِرَ في فرن صُهِرَ فيه نحاسٌ من قبل ، كـان لصدى احتكاكه بجسم آخر ـ بعد السَّبْك ـ صوتٌ أنينٌ . وإن صُهِرَ في فرن بُني على أنقاض فـرن ، كان لاحـتكاكـه بجسم آخر ـ بعد السبك ـ صوتٌ شهيقٌ . وإن صُهِرَ في فرن بقي مطفأً ستة أيام ، كان لاحتكاكه بجسم آخر ـ بعد السبك ـ صوتٌ مضغوطٌ . وإن صُهِرَ في فـرن ظلّ مشتعلاً أحد عشر يوماً متتالياً ، كان لاحتكاكه بجسم آخر ـ بعد السبك ـ صوتُ الذباب . وإن صُهِرَ في فـرن كَثُرَ من حوله ضحكُ الحدّادِيْن ، كان لاحتكاكه بجسم آخر ـ بعد السبك ـ صوتٌ خريرٌ . وإن صُهِرَ في فرن شُتِمَتْ قُرْبَه النارُ ، كان لاحتكاكه بجسم آخر ـ بعد السبك ـ صوتُ عُواءٍ . وإنْ صهر في فرن احترقت فيه فراشة قطنية الأجنحة ، كان لاحتكاكه بجسمٍ آخر ـ بعد السبك ـ صوتُ قبلة على فمٍ رطب .

من منجم في التل الصخريِّ ، الشبيه بقدم آدمية ضخمة ، جُلِبَ فلزُّ الحـديد ، في أرض دوكـون ، إلى أفران الصَّهْـر والسبك التـسـعة عـشـر . القليل القليل من ذلك الفلز ، المشـوب بنُسَافـة خـضـراء من معـدنٍ غريبٍ ، سُوِّيَ أقـفالاً ، وسلاسلَ ، ومسـامير . أما كثيرُه فـقد اجتهدَ خيالُ النارِ في ترتيبه صورةً استحوذتْ على بصر الإنشاء في أعماق الحدادين : الصورةَ ـ المدينةَ ؛ المدينةَ ـ الرؤيا .

علومُ المعـادن ، في أرض دوكـون ، رأتْ في الفلز مخـاطَبـةً تجـري

على نَسَق مُلْغزٍ ، لأنَّه مرتَّب أربعة وأربعين خيالاً ، على عدد الأَرْجل في دُوَيبة الحَرِيْش . وكل خيالٍ فيه يَسْتظْهِر خاصِّيَّتَه في شكلٍ هو نظامُه ومنطقُه ، اللذان انبثقا عن فروع الحقائق التسع والثلاثين :

الصوت   اللوعة   الخطأ
الحيرة   الإعتراف   الحيلة
فواتُ الأوان   الأرَق   البراعة
الغضب   الخوف   الندم
الإستباق   الترميم بلا نهاية   الصمت
الإمتحان   الرغبة   الخَلَلُ
العناد   الخذلان   المكابرة
اللزوم   الإحتمال   الإفراط
الخيانة   التلفيق   التكرار
اليأس   المُجادَلة   الترويع
الحماقة   الرؤيا   السَّهْو
الجَسَارة   اللَّغو   الثرثرة
الهرطقة   الإغفال   فـ الإنكار

وهذه الحقائق موفورةٌ ، بتمامها ، في آلةٍ لم تستحضرها جواذبُ الضروراتِ وإلهامُها المُبْتَكِرُ ، بل رُقِّنَتْ صورتُها ، انبثاقاً من رؤيا ، على كُرَة العقل الزرقاء ـ عقل الآدميِّ . والآلة هي : المدية .

أوقف الحدادون ، في أرض دوكون ، تسعةَ أعشار لهفةِ سَنادينهم

ومطارقهم ، على تشكيل المُدَى العريضة الشفرات ، بلا نقوش على معدنها . وألزموها مقابضَ من خشبٍ خشنٍ خلْوٍ من التزويق ، أو الحَفْر ، والنَّجْر ، كأنما أرادوها متقشِّفةً ، لكنها تتفضْفض ثراءً بنقوش خيالها إذا نُوديتْ لأداءٍ : تشقُّ ، وتقطع ، متنفِّسةً كحالم .

المدية ، التي استقرَّ مقامُها في يد الرجل المرهق العينين ، ظلت مغمدة في دعامة خشبية ، قرب الموقد الآجرِّ ، خمسة وخمسين عاماً ، داخل بيت العائلة الفاره . أغمدها الجدُّ هناك ، قبل موته الخاطف بيوم واحد ، فأُبقيتْ في موضعها تذكيراً بجدارةِ علامةٍ عمياء أن تظلَّ علامةً عمياء ، لن يعيدَ البصرَ إليها إلاَّ الجدُّ نفسُه إذا زار منامَ فردٍ في عائلته . لكنه لم يزُرْ منامَ أحد .

صدئت المدية من أبخرة الأباريق فوق الموقد الآجُرِّ .

كتم المعدنُ فكرتَهُ الصقيلة .

أُهْملتِ العلامةُ العمياء .

الرجل المُرهق العينين انتزع المديةَ ـ معدنَها المتكتِّمَ ، وخشبَ مقبضها ، من أمومة المهجور ، بعد خمسة وخمسين عاماً .

نقعها في زيت الزيتون البِكْر محصوداً بعد ريح الخريف الثالثة ، تسعة أيام ، ثم جَلَخهَا بالمجلخ ، فصقلها .

نقعها ، ثانيةً ، في زيت الذُّرة التماساً للأناة ، التي يتَّصف بها العِرْناسُ ـ ثمرةُ التدبير القائم مقام الفكرة الخالصة في منطق النبات .

نقعها ، ثالثةً ، في زيت دوَّار الشمس ـ الزهرةِ المتنكِّرة ؛ ثم في

زيت السمسم المُعذَّب قليلاً بتركِهِ في الظلّ الرطب لشجر التين ، غيرِ مُقَشَّرٍ ، قبل اعتصاره ؛ ثم في زيت بزر القطن المُحْتَقِن بمرارة البياضِ - لونِ الثأر ؛ ثم في زيت الفستق ذي الطِّباع الحارَّة ؛ ثم في زيت حوتِ العنبر - مُغنّي البحر .

مسح المديةَ ، بعد ذلك ، بجلْدِ القُطْرُب طويلاً .

أعادَ إليها فكرتَها الصقيلة .

قبَّلها بشفتَيْ قلبه ، قبل انضمامه إلى صِحابه المائتين ، الذين جروا السفينةَ بالحبال ، عبر سهول دُوْسخو ، إلى شاطىء بحر هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ ، الساكن ، السحيق .

زفيرُ المِبْرَد

كان سهلاً التقاطُ كِسْرةٍ من ذلك الحجر الرمادي ، الخشن ، ذي المسام ، في أيِّما أخدود صغير من أخاديد سهول دُوْسخو . ربَّما تصدَّعت الكتلةُ الأمُّ ، في زمن سحيقٍ تصدُّعٍ ، أيضاً ، بارتجاج في نظام الجماد . ربما تناثرت الكتلة الأم ، أرحاماً ، بعد ذا ، باكتمال النزوع إلى عُزلةٍ تخصُّ كلَّ رحمٍ بذاتها ، فأنجبتِ الواحدةُ منها الكِسْرَةَ الواحدةَ من الحجر الصغير ، في حدودٍ هي أَبعادُ خياله كحجرٍ ناضج ، مقتدر على تدبير شؤونه الصُّلبة ، أنائماً حالماً كان ، أمْ يقظانَ حالِماً ، كما هي حالُ الجمادِ الموثَّقةُ في سِجلٍّ الأبديٍّ .

جرى الخلط طويلاً ، في تقدير نسبة شَذَر الحديد إلى نسبة الرمل المتراصِّ ، في نشأته حجراً . الحرَّاثون حمَّلوا خواصَّه معانيَ عقلِ النُّظُم في فنون المجابهات المتكافئة ، ومنحوه لقبَ «الحجر المتحرِّش

بالسماء» ، إضافة إلى ألقابه الثلاثة الأخرى ، الموزَّعة على مراتب استخدامه جماداً أميناً ، ثِقةً ، معتدلَ الطِّباع ، وخجولاً أيضاً :

الكِسْرةُ ، التي أوكِلتْ ، في أيِّما حمَّام من أرض دوكون ، بِحَتِّ الجلد الميت عن أعقاب الأقدام ، سُمِّيتِ «الدعابة» .

الكِسرة ، التي حُفِظتْ في مخادع أهل دوكون ، قرب كل سرير ، دُعيَتِ «الرئةَ» ، مَذْ نَسَبوا إلى الحجر ذاك تعاقُبَ شهيقٍ وزفيرٍ من مسامه ، يجعلان نَفَسَ النائم أكثر انتظاماً في الليل .

الكِسرة ، التي فوَّضوا إليها شحْذَ سكاكينهم ، ومُداهم ، دُعيتِ «اللسان» : حجر يدرِّب كلَّ شفرة على نجوى دافئةٍ ، ويُلقِّنها الاعتذارَ عمَّا يؤلم .

قطعة كبيضة الدجاجة في جِرْمها ، وهيئةِ نَحْتِها ، انتقلت إلى يد الرجل المرهق العينين ، من شابٍّ جاوره في انكباب المائتين على جرِّ السفينة ، بالحبال ، عبر سهول دوسخو . الشاب الأغبر الجلد قليلاً تورَّمتْ رِبْلةُ ساقه اليمنى ، فكادتْ سُيورُ نعله الملتفَّة على الرِّبلة أن تغوص في اللحم . «اقطعْها لي» ، قال بصوتٍ مطعونٍ . حاول المرهقُ العينين قطعَ السيور بمديته فلم تفلح الشفرةُ . «اشحذْها بهذا الحجر» ، قال الشاب المتوجِّع . وضعَ المبردَ في يد صاحبه المرهق العينين ، الذي شحذَ به المديةَ قليلاً ، وحرَّر الرِّبْلَةَ المتورِّمَةَ ، المُنتَهَكة . لم يُعدِ الحجرَ الخشنَ إلى الشاب ، فتغاضى الشابُّ .

بقي المبردُ الحجرُ على حاله شهيقاً وزفيراً خافتيْن ، دافئاً ، في

الجيب المجاور للأضلاع اليسرى من صدر الرجل المرهق العينين ، ذي المعطف الجلد ، حتى وصوله إلى أرض الخلجان الكثيرة ، المترعرعة في كَنَف الأسماءِ المهجورة . خلجانٌ بلا أمومة ؛ بلا أبوّةٍ ، متحرِّرةٌ من شقاء النَّسب إلى البحر ، والنَّسب إلى البرِّ ، كأنها منفصلة ، ببرازخها المتعرِّجة ، عن الأرض وعن السماء ، طافيةٌ على عَقْل يتسوَّقُ من حوانيت اللون أَلَمَ كماله .

سمَّى الخلجانَ واحداً واحداً في عبوره .

قشَّر عنها سَنْفَ المياه ، وبذرها كالعَدَس في حَرْث خياله :

هذا خليجُ مُوْرْتفيك ، ذو الجزائر التسع الطافية ، كأثداء ، فوق شُعلة البحر ، يليه خليجُ أُوْدِن ـ خليجُ المياهِ السهولِ ، حيث أشباحُ السفن حُرَّةٌ في نَزَقها .

هناك ، على جذع شجرةٍ مهشَّم ، جلس الرجل المُرهق العينين ، مُطلقاً هسيسَ المعدن نقيّاً كرؤيا في احتكاك المدية بالمبردِ الحجرِ .

رياح أُوْدِن

الأربعة الشبَّان ، والشَّابتان ، اقتربوا ، بخطوات تترجم استياءهم إلى حركة ، من الشيوخ الإثني عشر . عضَّ غيرموهالي على كُمِّ معطفه غيظاً : «تتصرَّفون كالأحياء . لماذا لا تقتنعون أننا موتى ، أيضاً ، مثلكم؟» .

وضعت داهناليدا الطويلة راحتها على كتفه : «لم يكن موتُك مُقْنِعاً ، يانَفَس الأيل في المغيب . مُتْ من جديد» ، قالت مبتسمة عن أسنانها الكبيرة ، فاحتدمتِ العجوزُ القصيرة الشاحبة لاهلا : «لِمَ يتحدَّثون عن الموت هكذا ، يازوجي لُوْ؟ إنهم يخيفونني» .

رفع لُو يده المرتعشة أمام عيني داهنا ليدا : «ياابنتي ، لاتتحدَّثي أمام أُمك بكلام باردٍ في سخريته» . التفت إلى الشيخ المتآكل اللحية : «قُلْ لابنك غيرموهالي ، ياقناع السنجاب ـ سِيْل العالِم ، إنه

يخيفنا» .

«أنتم تخـيـفـون لاهلا ، وقناع العـقـعق ـ لُوْ المهـذب . أنتم تخيفوننا» ، قال سيل بصوتٍ فيه نبرة الضحك . «عثرنا عليكم أخيراً كي تخيفونا» . شَملَ الستةَ الأولادَ بنظرة الدُّعابة : «أخيفونا أكثر . نريد خوفاً نقيّاً ، مرفّهاً ، معافى ، يتمرَّغ بشهواته في هوى خوفٍ آخر . هَيُّوا ، أخيفونا» ، قال فاتحاً ذراعيه . «لكنْ عانِقونا أولاً» .

تقـضـقـضت الظلالُ المتراخـيـةُ جنوبَ دغل البـتـولا ، في الـفـراغ الفاصل بينه وبين دغل الصنوبر والقيقب . أنَّتِ الظلالُ .

برزت طليعـةُ رجال في مـعاطف مهـترئة ، وخُمُر منسدلة على الرؤوس ، شاحبيْنَ ، طويلي الشعور ، واللِّحى ، متَّصلي الأكتاف بحبال مشدودة من ورائهم يجرُّون بها شيئاً مَّا .

برز آخرون مثلهم ، مهترئي النعال ، يطنُّ من حولهم ذبابُ الإِعياء الثقيلُ .

ظهرت ساريةٌ فوق رؤوس الشجر .

ظهر حيزوم سفينة . تنفَّس الحيزومُ هواءَ البحر .

تراخى الرجال في جذب الهيكل الخشبي الباذخ ، الجليل . جثوا على الأرض مـتكوِّمـيْنَ يتنفَّـسـون من عظامـهم ورئاتهم مـعـاً ، وهم يتأملون ، بنظرات متشقِّقة ، ذلك الفراغَ السحيق خلف الجَمْع الواقف قرب الشاطىء .

«لاتقـتـربوا منهم» ، هتف راكـوف المتـخلِّع الأسنان بالآخـرين ،

فلامست نيدياد، الممتلئةُ الشفتين كتفه : «هم سيقتربون منا ، ياأبي . وفِّرْ أنفاسَك» .

نهض رجلان من ذوي الخُمُر المُسدَلة على رؤوسهم . طقطقا عظامَ رقبتيهما بإدارة الرأسيْنَ يميناً وشمالاً . طقطقا سلامياتِ أناملهما بشبْكِ كل يدٍ بالأخرى . حررا مفاصلَ أعضائهما بانتصاب مشدود ، وتقدَّما من جَمْع الآباء والأولاد . وقفا بإزائهم : «أهذا بحر هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ ، أيهَا الهادئون السادة؟» ، سألا . لم يجبهما أحد . استعانا بخيال البصر مشيرَيْنَ بأيديهما إلى المياه : «هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ» .

نظر الجمعُ إلى الغَمْر العريق يستقرئون المعاني الهادئةَ ، ثم عادوا بأبصارهم إلى الرجليْن خاليةً من نجدةِ الفهم . مالت داهناليدا الطويلة على أبيها لُو : «مَالغةُ لسانيهما؟» .

هز لُو البدين رأسَه نفياً . استدار إلى صاحبه الغائر الوجنتين : «أتشبه لغتُهما شيئاً مَّا من علوم النهاية في كتابٍ ، ياقناع الذئب ـ يوها النبيل؟» .

أوقف الرجل المرهق العينين سَنَّ المدية . رفع وجهَه ، تحت الخمار ، إلى الرجليْن ، من مجلسه البعيد قليلاً . أصغى بخيال السهول إلى لغةٍ مجفَّفةِ الحروف بهواءِ السهول ، لكنه لم يتعرَّف على سُحنتيهما ـ هو الذي جرَّ سفينةً أيضاً ، من أرض دوكون ، إلى بحر هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ الضائع .

انضمَّ خمسةٌ آخرون، من ذوي الخُمُر المسدَلَة على الرؤوس، إلى صاحبَيْهم. ترفَّقوا في رسْم أصواتهم أمام أبصار الآباء والأولاد المحدِّقيْن إليهم. قطَّعوا البحرَ صوراً بالإشارات. قطَّعوا الهواءَ صوراً بالإشارات. قطَّعوا السماءَ صوراً بالإشارات: «هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ»، تمتموا.

عدوى الحيرة في الحركات نثرت شميمَها، من جهة البحر، صوب الجالسين قرب سفينتهم. نهضوا جميعاً. تقدَّموا من الآخريْن متخميْنَ قَلَقاً: «ماتلكؤكم في العودة إلينا بخبرٍ؟»، ساءلوا أصحابهم الذين سبقوهم إلى الشاطىء، فردَّت الطليعةُ الأولى: «لم يقولوا شيئاً. هذا ليس بحر هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ».

«كيف عرفتم ذلك؟ واضح أنهم لا يفهمون لغتنا»، قال اللاحقون، فردَّ صَحْبُهم السابقون إلى الشاطىء: «لم نَرَ نبْضاً في عيونهم حين ذكرنا اسمَ هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ. لم ترتجف أهدابُهم. لم ترتفع أيديهم مصغيةً إلى شِفاهنا. هذا ليس بحر هِيْلاكْرِيْتُوْثِيْنِيْسْ».

انفصل بُولبون، الضيِّق الأجفان عن الجمع. مشى خطواتٍ مرفوع الوجه، في إجلالٍ مشوب بالدَّهش، إلى حيزوم السفينة العالي: «أيةُ ريحٍ محنِّكةِ الأثداء أرضعت قلوعَ هذه السفينة؟ هذا إبحارٌ في البرِّ». ألتفت إلى ذوي الخُمُر المُسدلة على الرؤوس: «أيَّ يقينٍ شربتم مع الماء كي تجرُّوا سفينةً عبر بوَّابات غابات القيقب، وكهوف ظلال الصنوبر، وحصون شجر البتولا والزنزلخت؟»، قال،

فنادته زوجته سَاسْكا بصوتٍ ذابلٍ : «لا يفهمونك ياقناع الوعل ـ بولبون الصاخب ، ولا تفهمهم ، فلِمَ تسأل؟ أمْ تسألنا نحن؟» .

رجع بولبون خطواتٍ . واجه جَمْعَ الآباء : «ألا تستدرجكم سفينةٌ مبحرةٌ في البرِّ إلى توبيخ الريح؟» ، قال مبتسماً باستنكار . مدَّ ذراعه في اتجاه السفينة : «منذ القِدَم تكذب الريح . هاهي تأتينا بسفينة عبر البرِّ أيضاً» .

أظنهم «جرُّوها على عجلات ، ياقناعَ الوعل ـ بولبون الصاخب . فلا تُوبِّخ الريحَ . لاتُكذِّب الريحَ» ، قال فيناكو المبتسم في سخرية . أردف : «كذِّبِ السُّفنَ . وبِّخها . هي التي تكذب منذ القِدَم» .

تلفَّت الرجال ذوو الخُمُر المُسدَلَة على الرؤوس بعضهم إلى بعض : «نشير إلى البحر ، فيشير هؤلاء إلى السفينة . هيُّوا . فلنمضِ» ، قالوا .

نهض الرجل المُرهق العينين عن الجذع المهشم إذ رأى الرجالَ ، أولئك ، يعودون إلى حبالهم فيجرون بها السفينة من فوق أكتاف معاطفهم المهترئة . أنَّتِ العجلاتُ الكبيرةُ ، القوية ، التي حملت الهيكلَ الخشبي ذا الصارية . اتجهوا ، في ثقل يتفتَّقُ عن ثقلٍ ، بمحاذاة الشاطىء جنوباً . دمدم راكوف المتخلِّع الأسنان مستنكراً : «لماذا لا يدفعون بالسفينة إلى المياه؟ أيُّ حمقى . .» ، قطعَ جملتَه . رفع صوتَه صائحاً : «أنتم . أيها المغفَّلون ، يا» . قاطعه سِيْل المتآكل اللحية : «مابك ياقناع الثور ـ راكوف الباسل؟» ، فردَّ راكوف : «ألا يُفْقِدُك هؤلاء صوابَك ، ياقناع السنجاب ـ سِيْل العالم؟ البحر على أشبارٍ

منهم ، وهم يجرُّون السفينةَ في البرِّ!!!!» .

«يتقصَّدون أن يلهموك شيئاً مَّا» ، قال سيل .

«نعم . يلهمونني الحماقةَ» ، ردَّ راكوف .

«لا» ، قال سيل . أردفَ : «أن تختار الجهةَ بدقَّة» .

«وما الدِّقة في اختيارهم جرَّ السفينة عبر البرِّ؟ خيارٌ جنونٌ ، ياقناع السنجاب ـ سِيْل العالم» ، قال راكوف .

«أن تختار جنونَك أمرٌ مذهل ؛ خيارٌ لا يعادلُ جلالَهُ خيارٌ آخر ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل» ، قال سيل .

«ماذا تمتحنان نَفْسَيْكما فيه؟» ، ساءلهما لُوْ البدين . تدخَّل فيناكو المبتسم في سخرية : «هلاَّ امتحنْتُك ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل ، في أمرٍ يُشغلني كثيراً؟» ، فرد راكوف :

ـ منذ متى يشغلُك شيء مَّا ؛ أيُّ شيء ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟

استرسل فيناكو متجاوزاً السؤالَ المعترضَ : «لو صفعتْك امرأة ، في الطريق ، زاعمةً ، بصوتٍ عالٍ ، أنك تحرَّشت بها ، وأنت لم تتحرَّش بها ، فماذا تفعل؟» .

«أصفعها» ، ردَّ راكوف .

ضحكت لولوكي : «سيصفعُك جميعُ من في الطريق ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل» .

أعاد فيناكو ترتيب المسألة : «ماذا لو صفعتَ امرأةً تحرَّشت بك ـ

لَمَسَتْ ردفَك مثلاً ـ في الطريق ، وصرختَ : إنها تحرَّشتْ بي ، فأيُّ تصرُّف سيُبديه المارَّةُ؟» .

«سيصفعونها بدورهم» ، رد راكوف ، فهزَّت ساسكا الذابلةُ الإبتسامة رأسَها استخفافاً : «بل سيصفعك المارَّة» .

«لِمَ تتبعوننا؟» ، دمدم جيماتيرك الشاب ، ذو القبعة الشبيهة بالبيضة ، بعد إصغاء طويل ، هو وصَحبُه الشبان والشابتان إلى محاورات الكهول الشيوخ .

«كيف نسينا وجودَكم ، بعد عثورنا عليكم؟» ، قال يُوها الغائر الوجنتين مندهشاً . دار بوجهه على صَحْبه الكهول : «أنحن نتبعهم؟» .

اقترب ماسيليدي الشاب ، ذو القبعة الجلد المنسدلة الحواف على أذنيه ، من يُوها : «أهي المصادفة ، ياأبي ، قادتكم إلى هذا الخليج؟» ، فردَّ سِيْل المتآكل اللحية : «ليست المصادفةُ ، ياشبح الزنبق ـ ماسيليدي ، وليس الإقتفاءُ قَصْداً ، أَلْقيَا بنا في أرض هذا الخليج . الطُّرقُ محسوبةٌ على نحوٍ صارم ، من أيِّما مكانٍ إلى أيِّما مكان . لو لم نعثر عليكم لعثرتم علينا» .

«فلنفترقْ» ، قالت نيديداد ، ذات الشفتين الممتلئتين ، وتلفتَتْ من حولها تختار جهةً للمضيٍّ ، فتداركها راكوف : «مايهمُّ لو بقينا معاً ، قليلاً ، أيتها الغيمة في الشروق ، ابنتي نيديداد؟» .

«البقاءُ قليلاً معكم كالبقاء طويلاً ، يا أبي . لا معنى للأمر» ،

أحدكُم عن الآخر» ، قال راكوف ، فردت نيديداد : «ليس قبل العثور على خليج مورتفيك» .

«ماخليج مورتفيك هذا؟» ، ساءلها لُوْ ، ذو اليدين المرتعشتين .

«خليج الغرباء الصيادين ، ياأبي» ، قالت داهنا ليدا الكبيرة الأسنان .

«ماشأنكم والغرباءَ في خليجٍ غريبٍ؟» ، ساءلها بولبون ، فردَّ جيماتيرك النحيف : «سنسلِّهم» .

قهقه فيناكو . صعد الدمُ ساخراً من قلبه إلى وريديْ عنقه : «هذا هو الأمر إذاً . ستسلُّون الغرباء» . لمس بكتفه كتفَ زوجته لُولوكي المنفرجة الأسارير أبداً : «إبننا طحين الأرز - راموسيراسمو يتقن ابتكار التسلية!» . دار على الوجوه المكتهلة بعينيه الطائرتيْنِ مَرَحاً : «ماذا تنتظرون؟ اجْلسوا على عشب هذا الشاطىء . أولادنا سيسلُّوننا أولاً» .

«لن نسلِّي إلاَّ الغرباء ، ياقناع الإوز ، أبي - فيناكو الرائع» ، قال راموسيراسمو . ألقى بصرَه على غابة البتولا يتشمَّم من ظلالها الرطبة ، بأنفِ البقاء العريق ، فُطرَ المهجورات . «لستم غرباء . لستم مُلْهِميْنَ» ، قال هامساً .

«ماذا لو حاولنا أن نكون مُلْهِميْنَ؟» ، قالت الكهْلةُ آنْفا ، ذات العينين النائمتين ، فاستدار إليها ماسيليدي الحليق اللحية : «لا تحاولي ياأمي» ، قال بصوتٍ خافتٍ ، مبتَهِل . تكلَّم الغائرُ الوجنتين يُوها : «تصنَّعْ أنك أمِّي ، ياشبح الزنبق - إبني ماسيليدي . تصنَّعْ ذلك

أحدكُم عن الآخر» ، قال راكوف ، فردت نيديداد : «ليس قبل العثور على خليج مورتفيك» .

«ماخليج مورتفيك هذا؟» ، ساءلها لُوْ ، ذو اليدين المرتعشتين .

«خليج الغرباء الصيادين ، ياأبي» ، قالت داهنا ليدا الكبيرة الأسنان .

«ماشأنكم والغرباءَ في خليجٍ غريبٍ؟» ، ساءلها بولبون ، فردَّ جيماتيرك النحيف : «سنسلِّهم» .

قهقه فيناكو . صعد الدمُ ساخراً من قلبه إلى وريديْ عنقه : «هذا هو الأمر إذاً . ستسلُّون الغرباء» . لمس بكتفه كتفَ زوجته لُولوكي المنفرجة الأسارير أبداً : «إبننا طحين الأرز ـ راموسيراسمو يتقن ابتكار التسلية!» . دار على الوجوه المكتهلة بعينيه الطائرتيْنِ مَرَحاً : «ماذا تنتظرون؟ اجْلسوا على عشب هذا الشاطىء . أولادنا سيسلُّوننا أولاً» .

«لن نسلِّي إلاَّ الغرباء ، ياقناع الإوز ، أبي ـ فيناكو الرائع» ، قال راموسيراسمو . ألقى بصرَه على غابة البتولا يتشمَّم من ظلالها الرطبة ، بأنفِ البقاء العريق ، فُطرَ المهجورات . «لستم غرباء . لستم مُلْهِمِيْنَ» ، قال هامساً .

«ماذا لو حاولنا أن نكون مُلْهِمِيْنَ؟» ، قالت الكهْلةُ آنْفا ، ذات العينين النائمتين ، فاستدار إليها ماسيليدي الحليق اللحية : «لا تحاولي ياأمي» ، قال بصوتٍ خافتٍ ، مبتَهِل . تكلَّم الغائرُ الوجنتين يُوها : «تصنَّعْ أنك أمِّي ، ياشبح الزنبق ـ إبني ماسيليدي . تصنَّعْ ذلك

لبرهة» .

«ماذا؟» ، ساءله ماسيليدي مستنكِراً ، فرد يُوها : «سمعتَني» .

«أتصنَّعُ أنني أمك ، ياأبي؟» ، تمتم الشاب الحليق اللحية . استطلعَ وجوهَ الآخرين ، في ثقل . ارتفع صوتُ العجوز سُوْد : «تصنَّعي أنك أبي ، ياابنتي نيديداد» .

«أيُّ خَبَلٍ ينتعظ الآن كقضيب الدِّيك؟» قال غيرموهالي ، الطويل المتقوِّس قليلاً . «لستم مُلْهميْنَ» ، فاعترضتْهُ دورنيما ، الشديدة البياض : «حسناً ، ياابني غيرموهالي . لا تتصنعوا شيئاً أمامنا . لكنَّ مااقترحه قناع الذئب ـ يوها النبيل ، وكذلك سُود ، أمرٌ يَصلح بدايةً لتسلية غريبٍ أيضاً» .

«ماالمُسلِّي ، أيتها الرقيقة دورنيما ، في أن يتصنَّع شبح الزنبق ـ ماسيليدي ، أمام غريب ، دورَ أمِّه ، وأن تتصنَّع الغيمةُ في الشروق ـ نيديداد ، أمام غريبة ، أنها أبوها؟ . سنصنع ، نحن ، فكرتَنا عن تسلية أمام غرباء . هم سيبتكرون لخيالنا ، إيحاءً ، ماسنبتكره لخيالهم» ، قالت داهناليدا ذات الرموش الشديدة الشقرة .

«الغريب لعبةٌ ملفَّقَةٌ بلا إتقان . لا تنتظري منه مالا ينتظره منكِ ، أيتها المقنَّعة داهناليدا . بل الأفضل ألاَّ ينتظر أحدكُما شيئاً من الآخر . الإنتظار ، أبداً ، خيبةٌ . لا انتظار ينتصر على نَفْسه . كل انتظار ينتهي بجرحٍ ، حتى لو انتصر على نَفْسه وفاقَ المتوقَّع . لكنه لا ينتصر على نَفْسه» ، قال فيناكو ، المبتسم أبداً في سخرية . فك الحزامَ

عن خصر معطفه العتيقِ . رفعَ يده يوقف داهناليدا التي همَّت بالكلام : «جَمَالٌ خيبةٌ . شهوةٌ خيبةٌ . إنتصارٌ خيبة . كلُّها براعاتٌ يتدبَّرها انتظارٌ ينتظره انتظارٌ آخر ، بارعٌ ـ بدوره ـ في التمويه . الإنتظار تمويهٌ ، ياداهناليدا . الإنتظارُ هزيمةٌ» ، قال .

«توقَّفْ ، ياقناع الإوز ـ أبي ، فيناكو الرائع . هذا كلامٌ ممرَّغ في شحم الشواء . «ساحةُ العظام ـ المرايا» ، في أرض السَّحلبية الميتة ، تدور على لسانك دورتَها المُرْهِقة . لن تستدرجَنا إلى شيء» ، قال راموسيراسمو مستاءاً ، فتمتمت لُولوكي البيضاء الشعر مستفسِرةً : «لماذا دعوتها أرضَ السحلبية الميتة ، يانكهة طحين الأرزِّ ـ ابني راموسيراسمو؟ هي أرض السحلبية ـ الأوركيد الزرقاء» .

ضيَّق راموسيراسمو بين أجفاته يحصُر فكرةً فاجأَتْه : «مَنْ يختارُ مَنْ : الزهرةُ اللونَ ، أم اللونُ الزهرةَ؟» ، فرد يُوها الغائر الوجنتين :

ـ الزهرة تختار لوناً يطابق فكرتَها عن كونها زهرةً ، واللونُ يختار زهرةً تطابق فكرته عن كونه لوناً .

«هيُّوا أيها الصَّحبُ . فلْنجدْ غريباً . هؤلاء . . .» ، قال راموسيراسمو مشيراً بذراعيه المفتوحتين إلى الآباء والأمهات : «هؤلاء يعيقوننا» .

«لماذا لا تسلُّون هذا الغريب؟» ، ساءل سِيْل الشُّبَّانَ والشابتين ، متطلعاً صوب الرجل المرهق العينين . أضاف : «أمْ أن غريباً واحداً لا يكفي؟» .

«لستُ أدري مابه هذا الغريب، ياقناع السنجاب ـ سِيْل العالم. لا يتكلم. ربما لا يفهمنا»، قالت نيديداد. فاستطرد غيرموهالي في توصيف الحال:

ـ أظنُّه غيرَ مبالٍ، أيتها الغيمة في الشروق.

«سنعينُكم»، قال بولبون الأحمر الوجه. فتح صدرَ معطفه. استخرج من جيب في بِطانته قناعاً صغيراً من الجلد، يكفي النصف العلويَّ من الوجه، على جانبيه فتائلُ جلدٌ أيضاً، مشمَّعة جيداً لتنتصبَ بانحناءٍ كقرني الوعل. أومأ إلى الشيوخ الآخرين: «أخرِجوا أقنعتَكم».

فتح الشيوخُ معاطفهم عن جيوبٍ منتفخة قليلاً. سلَّ يُوها الغائر الوجنتين، من البِطانة، قناعاً عُلويَّ النصف، على جانبيه أُذنان كأذني الذئب، ينتهي مقدَّمه بمنخرين يستقران فوقَ الأنف. سلَّ لُوْ، البدين، من البطانة، قناعاً عُلويَّ النصف، له استطالة كمنقار العُقْعق. سلَّ راكوف، الأفقم الفم، من بِطانةِ معطفه، قناعاً مُحدَّباً كجبهة الثور، ذا قرنين صغيرين على جانبيه. سلَّ فيناكو، المبتسم في سخرية، من بطانة معطفه، قناعاً قماشاً مغطًّى بريش أبيض، له استطالةٌ، فوق الأنف، حمراءُ مفلطحة كمنقار الإوز. سلَّ سِيْل، المتآكل اللحية، من باطن معطفه، قناعاً من جلدٍ ذي وبر ناعم، له أنفُ سنجابٍ وأُذناه.

«كيف ترونَنا الآن؟»، سأل بولبون الشبانَ والشابتين بصوتٍ

مُخْتـال ، فَهَمْهَمَ غيرموهالي الطويل ، المتقوِّس الهيكل قليلاً : «لماذا تحملون معكم الأقنعة ذاتها ـ أقنعةَ أرض السحلبية الزرقاء؟» .

«على البـعض أن يحـمل الأقـنعـة ذاتهـا ، من مكان إلى آخـر . القناعُ اعترافٌ» ، قال فيناكو ، المبتسم في سخرية لم تَعدْ تُرى .

«بِمَ تعترفون ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟» ، ساءلته داهناليدا ، فردَّ الشيخ :

ـ بأبوَّتنا ؛ بالقناع الأصل .

«بل نعـتـرفُ بكوننا مـرايا . نحن مـرايا ، الآن» ، قـال بولبـون ، الأحمر الوجه . فانبرى فيناكو هامساً توريياته على نحوٍ أكثر صخباً من صوتٍ عالٍ : «أنتَ لستَ الغَدَ ، ياقناع الوعل ـ بولبون الصاخب» .

«لِمَ أقْحمتَ الغدَ في ثرثرتنا ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع؟» ، ساءله بولبون ، فردَّ فيناكو :

ـ الغدُ هو المرآة . الغدُ ، الذي يلي ايَّ يومٍ حاضر من أيامك ، هو المرآة .

«الغدُ خُدعة يتدبَّرها يومُك ، الذي أنت فيه ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع» ، قال لُوْ البدين .

«ليكنِ الغدُ مرآةً . سأدَّعي ذلك . لا بأس ، لكنها مرآة لستَ مرغماً على النظر فيها إلى نَفْسِك ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع» ، قال سِيْل بنبرة هادئة .

«مَنْ المُرْغَمُ على النظر فيها ، إذاً ، ياقناع السنجاب ـ سِيْل

العالِم؟» ، ساءله فيناكو ، فردَّ سِيل : «الهَلِعون» .

«ينظرون إلى أنفسهم الهلِعَةَ تعني» ، قال فيناكو .

«ينظرون إلى الأقلِّ هَلَعاً» ، رد سيل .

غمغم راكوف ، المتخلِّع الأسنان ، متذمِّراً . فتَّقَ الهواءَ بشفرة أنفاسه وإبرتها . واجهَ فيناكو : «احسبْني مرآةً . تصنَّعْ ذلك ، ياقناع الإوز ـ فيناكو الرائع . ماذا ترى فيَّ؟» .

«أنت ذو سطح يمكن تخمين عمقه بسبع من حبوبِ الذُّرة . لستَ مرآةً ، ياقناع الثور ـ راكوف الباسل . المرآةُ عُمْق أبديٌّ مُخْتَلَقٌ لسطحٍ أزليٍّ مُخْتَلَق» ، قال فيناكو .

«لو تصمتون قليلاً» ، قالت سُوْد المنتفخة الأجفان من بقايا رغبةٍ لم تُرَوَّ . أضافت : «توقَّفَ أولادنا ينتظرون شيئاً آخر منَّا غير هذه الثرثرة» .

«الصمت قادم ، ياسُود» ، قال بولبون . تمتم : «الصمتُ الميزان» .

«ماذا تزنُ فيه ، ياقناع الوعل ـ بولبون الصاخب؟» ، ساءلتْه آنفا ، ذات العينين النائمتين ، فردَّ بولبون : «حريةَ الكلمات» .

«ماحريةُ الكلمات؟» ، ساءله لُوْ البدين ، فردَّ بولبون :

ـ أن تتجاسرَ الكلماتُ على صناعة الخسارة .

تقوَّض الجمعان المتقاربان . نزحتِ الصورُ عن حيِّزها فشغرتِ الأشكالُ المتقابلة : ابتعد الأولاد ، في انفصالٍ كالشرخ ، عن الآباء والأمهات ، الذين وجموا . غمغمت لاهلا النحيفة الشاحبة : «ألن

يوقفهم أحد؟» . خَطَا لُوْ ، البدين ، يتبعهم . جاورَ داهناليدا الطويلة : «ياابنتي المعصوبة العينين ، هاارتدينا أقنعتنا لنُعينكم . اخْتَلِقُوا لنا أدواراً وسنتبعكم إلى أيٍّ خليج أو سهل» ، قال بصوتٍ متوسِّل قليلاً ، فلم ترد داهناليد . توقَّف متردِّداً أيرجع إلى صحبه أم يسترسل في تتبُّع الأولاد . لحقت به سَاسْكا الذابلة الإبتسامة : «سنقْنِعُهم بشيءٍ مًّا . علينا أن نقنعهم ، ياقناع العقعق لُوْ المهذَّب» . أسرعت في مشيها فجاورت جَمْعَ الأولاد الماشين في هدوء ثقيلٍ ، وصارم : «لدينا مانفعله ، نحن الأمهات . لدينا أناشيد مُخْتَطَفَة من الأرق الناضج ، أيها الأولاد ، قد نثير بها فضولَ التسلية في القلب . امنحونا أدوارَ المنشدات» ، قالت . لم تنتظر من عَجَلتها جواباً . التفتت إلى صَحْبها من الآباء والأمهات : «هيُّوا يانساء» ، نادتْ ، فتحركت النساء والرجال الكهول الشيوخ بأقدام عَجُولة .

تداخل الجمعان من جديدٍ ، في سياق من المشي الصارم لم يُخلَّ به انضمامُ الآباء والأمهات إلى أولادهم . تململتِ الريحُ . ارتدَتْ حُلِيَّها ـ حُلِيَّ الصوت صِيْغَتْ من بُرادة المعدن ، وأحضرتْ نايَها الحجريَّ . بَسَطتْ عزيفَها على مراتب الثقَل في الفراغ المسكون والفراغ المهجور . تأنَّقتِ الحركةُ في استدراج مُمكناتها . تأنَّقَ المرئيُّ النَّقشُ على عقلِ موجٍ .

«سأنشد» ، قالتْ لاهلا . جذبت زوجَها لُوْ ، كَي يجاورا ابنتهما داهناليدا :

«ألمي ليس ألمكِ ، ياابنتي .

ألمك ليس ألمي ، ياابنتي .

حُلْمُكِ بأمٍّ لا يتّسع لي .

حلمي بابنةٍ لا يتّسع لكِ

أريد أن أتلمَّس ماهو ضائع في كوني أُمّاً ، وكونك ابنةً .

أريد معجزةً تلدُكِ مني» .

لم تلتفت داهناليدا إلى أمها .

بَرَتِ الريحُ بمبراتها أقلامَ الهواء . شدَّ الماشون خُمُرَهم على الرؤوس ممسكين بأطرافها . جذبت دورنيما زوجها سِيل مقتربة من ابنها غيرموهالي . جاورتْه . رفعت وجهها إليه بعينين تكادان تنغلقان :

«اسمعْ نشيدي ، يانَفَس الأيل في المغيب» ، قالت بصوت مشروخ :

«لا امرأةَ تَلِدُ .

يلدُ الطفلُ أمَّه ؛

يلدُها من صرخته» .

أرخى غيرموهالي الخمارَ أكثر على وجهه . لم ينطقْ .

جَدَلَتِ الريحُ السماءَ ؛ عَقَصَتْها . تبرَّجت للمياه بأصباغ الخمائر المحمومة . أغمضت آنفا الممتلئة عينيها النائمتين وهي تدفن جبينها في عَضُد زوجها يُوها . جاورا ، على النحو ذلك ، ابنهما ماسيليدي .

«سأنشد لكَ نشيدي من غير أن أنظر إليك ، ياشبحَ الزنبق» ، قالت :

«أيها المتوسِّل إلى نَفْسِهِ أن يكون أبي ، انتظرْ قليلاً .

سأتوسل إليكَ أن تكونَ أمومتي في البحث عن أبٍ
لم يعرف قط أنه ابنيَ» .

وضع ماسيليدي راحتيه على جانبي قبَّعته المُسدَلة الحواف على أذنيه . بقي صامتاً .

تعرَّتِ الريحُ عُريَها الأكملَ . شهقتْ ، فشهقتْ أشجارُ البتولا .

تقدَّمت سُوْد ، وهي تدفع زوجَها راكوف ، من ابنتها نيديداد . لمست كتفها براحة قلبها : «اسمعيني أيتها الغيمة في الشروق . لا تَدَعي الريحَ تخلط الكلمات . سأنشد نشيدي» ، قالت :

«ستكونينَ ابنتي بالحيلة ، التي تجعلك ابنةَ كلِّ أحدٍ .
سأكون أمَّك بالحيلة ، التي لا تجعلني أمَّ أحدٍ» .

توقفت نيديداد . انحنت تتلمَّس عُصابات الجلد الملفوفة على ساقيها . أحكَمَتْ شدَّها . استقامتْ ومشت من جديد .

قطعت الريحُ عقدَها بلا غضب ، فتناثرتِ الموجوداتُ صوراً متهدِّلةً . تعثرتِ الظلالُ بالظلال . «لا تلتفت إليَّ ، أو إلى أبيك قناع الإوز - فيناكو الرائع ، ياابني راموسيراسمو . من وراء كتفيك سأنشد نشيدي» ، قالت لولوكي السابحةُ الوجه في غيمة شعثاء من شعرها الأبيض :

«إحْمِني من انتصاري عليك .
احْمِني من البقاء أُمّاً» .

دار راموسيراسمو بوجهه إلى غابة البتولا . دارت الريحُ على

نَفْسها مُنجزةً قياس الأعالي بأرقامها .

«لا تلمسيه» ، قال بولبون لزوجته ساسكا ، حين مدت يدها إلى كتف ابنها جيماتيرك النحيف ، فأعادت المرأة الرقيقةُ الوجه يدَها ملجومةً . أبقت وجهها مُطرِقاً في مشيها . أنشدتْ :

«أعِدْ إليَّ التَرَفَ ، الذي يُبْقيْكَ مُشْكِلاً .

أعِد القسوةَ إليكَ وإليَّ» .

أتمَّتِ الريحُ سطورَها الإثني عشر ـ سطورَ الفراغ المدوَّنةَ بإفراطٍ في ضخامة حروفها . ربتَتْ بيدها على عنق الفهد ذي الوبر اللاممسوس ـ فهدِها البلَّوري . طوَّقت هبوبَها ، واعتصرتْه قطرةً قطرةً ، في امتثالٍ عذبٍ للغيبوبة .

أعادتِ الريحُ نفسها خلاءاً .

نامتِ الريح .

توقَّف الجمعُ عن المشي . بدا الكلُّ مُنْتَهْباً ، بغتةً ، باللاجدوى . داروا بأعينهم على البرِّ وعلى البحر . تنفَّسوا السماءَ بأنوف جروحهم اللامرئية . تمتم فيناكو ، المبتسم في سخرية : «موتٌ واحدٌ موتٌ غيرُ مُقْنع» . هزَّ رأسَه مستبِقاً أن يردَّ أحد : «على المرء أن يموت مرتين» .

«عمَّ تتحدث ياقناع الإوز ـ زوجي فيناكو الرائع؟» ، ساءلته لولوكي ، فتدخَّل راكوف : «زوجك يتدرَّب على المشي بين الكلمات» ، قال الأفقَم الفم .

«فلنعدْ إلى ذلك الغريب» ، قال سِيْل مُغْلِقاً المحاورة بقُفلٍ مفتوح .

نقَّل عينيه بين الوجوه الفتيَّة : «وهبتم رحلتكم هذه لتسلية غريبٍ . جرِّبوا لمرة أخيرة ، حتى لو ظل الجالس ، ذاك ، متجاهلاً . المبردُ والمديةُ علامتان من علامات اليقين الثلاث عشرة» .

داروا بأبصارهم إلى الرجل المرهق العينين وقد تضاءل في الفراغ البعيد قليلاً . تمتمت سُوْد ، المنتفخة الأجفان من بقايا رغبةٍ لم تُرَوَّ : «أهو غريب حقاً؟ ربما ليس غريباً» .

«أتعرفينه ، ياسود؟» ، ساءلها زوجها راكوف مستنكراً تدبير عقلها .

«بل هو غريب لم يقرِّر ، بعدُ ، أن يكون غريباً» ، قال فيناكو ، المبتسم في سخرية .

«ليس هذا ، وليس ذاك» ، قال بولبون الضيق الأجفان . أردف : «فلْنقُلْ إنه يتدرَّب» ، فساءلته ساسكا الذابلة الإبتسامة : «يتدرَّب على ماذا؟» .

«على أن يصير غريباً» ، ردَّ بولبون .

تحرك جيماتيرك الشاب متقدِّماً الآخرين في عودته صوب الرجل المرهق العينين : «ربما لا يعرف أنه غريب» ، قال بصوت المستدركِ شيئاً فاتَهُ .

«كل غريب يعرف أنه غريب ، يامحيِّر شجر القيقب» ، تمتم يُوها الشيخ ، الحسير البصر ، هامساً همساً ممتلئاً بإخلاص الحروف لضوابطها . فتكلمت نيديداد :

ـ ماذا لو كان موقناً أننا ، نحن ، الغرباء؟ لن يلحظ نَفْسَه ، إذ ذاك ، غريباً .

توقف جيماتيرك . استدار إليها بعينين قلقتين ، فانتهره فيناكو : «لاتتوقفْ ، يامحيِّر شجر القيقب . هيِّئوا هذا الغريبَ لدوره ـ دورِ الغريب . كلِّموه كَمَنْ يعرف الآخرَ . اختلِقوا له اسماً ، ونَسَباً ، ومكانَ قدوم ، وعُمراً ، ورغباتٍ ، وأحلامَ يقظة ، وذاكرةً بلا ألم . أوهمِوه أنه سيخَافُ الوحدةَ إذا غادرتم» . صمتَ برهةً يستنطقُ نقشَ المفارقات منعكساً في ماءِ فكرته : «ربما لن يَفهمَ شيئاً من هذا» ، رفع يديه بحركة استسلام . أردفَ : «لا بأس . لكنْ أراهن أنه سيجد نَفْسَه ، في ختام لعبتكم المُرتَجَلَةِ ، المُخْتَلَقة بلا إتقانٍ ، غريباً مخلصاً لفكرتكم عنه كغريب . ستكونون غرباءَه ، الذين يلقِّنونه أملاً في بقائه غريباً . لا غريبَ يأمل في أكثر من بقائه غريباً . كل شيء آخرَ تمويه كتمويه غدكم على يومكم هذا باختيار نُقْلَةٍ تُربِكُ التعيين . اليومُ لا يُخلي مكانَه للغدِ إلاَّ باحتيال الغد عليه . كلٌّ غدٍ حيلةٌ . وحيلةُ الغريب أنتم ، فاحتالُوا بها على أنفسكم» . مشى يسبق جيماتيرك ، هامساً : «لا تسليةَ أكبر من هذه» .

تحرَّك الآخرون . مشوا . همهم بولبون على نحوٍ يخلط الهواءَ بالحروف في حنجرة خياله الناطق : «لا وجود لغرباء . لا غرباء في أيِّما مكان . لانُظُمَ ، لا مصادفات قادرة على ابتكارِ غريب . الغريب حَلٌّ لُمعضلةٍ مفترَضة . الغريبُ افتراضٌ» .

«سنفترض واقعاً يمكن فيه تسليةُ غريبٍ مُفتَرَض» ، قال ماسيليدي مُماحِكاً بولبون ، فهمْهَم الشيخُ الضيق الأجفان ثانية : «الواقعُ ، أبداً ، ذاكرةُ النهاية ، ياشبح الزنبق» .

عبر فوقهم شحرور أسود يطارده عقعقٌ . دارا في الهواء لولبيًّاً . انحدر الشحرورُ إلى المياه . شقَّها غائصاً فغاص من خلفه العقعقُ قبل أن تلتحم المياه . مسح الآباء ، والأمهات ، والأولاد ، بزيت أبصارهم الثَّلْمَ الأزرقَ في الغمر . مشوا ، من جديد ، صوب بلورة الفراغ المحيطة بالرجل المرهق العينين . صاروا على أذرع منه . توقفوا يعتصرون ، بيد خيالهم ، ثمرةَ النداءِ السَّاكن .

نهض الرجل في هدوء . وضع المبردَ جانباً على الجذع المهشَّم . رفعَ وجهه ، في الخمار المُسدَل على رأسه ، إلى الجمع الواقف . بضعُ فراشاتٍ حامتْ ، في طيرانها الثقيل ، المتكسِّر ، حول البلورة اللامرئية ، المحيطة بخصائصه المرئية كهيئةٍ . مرَّرَ شفرةَ المدية على لسانه يتذوَّق طباعَ المعدن في توابلها العريقة . رفع يده اليسرى أمام عينيه . هزَّها في حركةٍ شمَّرت كُمَّ المعطف قليلاً عن معصمه . وضع الشفرة على اللحم : حزَّ العصبَ والوريدَ .

نفرَ الدمُ حرّاً من دورته الرتيبة . انقذف متنفِّساً .

أرخى الرجل المرهق العينين ذراعه اليسرى إلى جانبه . مال على الجذع المهشم فأغمد المديةَ فيه ، ثم مشى تواكبه قطراتُ الدم متلاحقةً تكلِّم الواحدةُ الأُخرى بلسان البقاء النازف . جاورَ الجمعَ

الواجمَ . نظرَ إلى الوجوه في ثقلٍ : «هذا خليج أُودن» ، قال ، فغمغموا مشدوهيْنَ : «إنه يكلِّمنا بحروف لغتنا!!!!» .

أكملَ الرجل المرهق العينين سيرَه فعبَر الجمعَ الواجم . رفع صوتَه من غير أن يلتفت إليهم : «لا أحد في خليج مُوْرْتفيك» .

تجرَّعتْ غابة البتولا الصخبَ طاحناً من أباريق ظلالها . سُلخَ النُّور . سُلِخَ المكانُ معلَّقاً إلى خُطاف الرؤيا الحديدِ : سُفن لا تُحصى شقَّت ممرَّات الأرض ، متجهةً - بأشرعتها المنشورة على الصواري - صوبَ مُنعَرجات خليج أودن ، يجرُّها بالحبال ، زحْفَاً على بطونها ، خَلْقٌ كثيرٌ - في معاطف مهترئة ، لهم رؤوس أيائلَ بقرونٍ متشعبة تسْعَ شِعَابٍ في كل قرن ، ليست ذهباً أو فضة ، بل ماءٌ جليدٌ ، نقيٌّ بلَّورٌ ، لا تشبه قرون الأيائل في سْكُوْغُوْسْ - أرضِ العبثِ المُعتدِلِ .

سكوغوس / السويد

القرن الثاني عشر الميلادي . ٢٠٠٥

صدر للمؤلف

* كل داخل سيهتف لأجلي ، وكل خارج أيضاً (شعر)
* هكذا أبعثر موسيسانا (شعر)
* للغبار ،لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر)
* الجمهرات (شعر)
* الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) (سيرة)
* الكراكي (شعر)
* هاتِه عالياً ؛ هاتِ النَّفير على آخره (سيرة الصبا) (سيرة)
* فقهاء الظلام (رواية)
* بالشّباك ذاتها ؛ بالثعالب التي تقود الريح (شعر)
* أرواح هندسية (رواية)
* الريش (رواية)
* البازيار (شعر)
* الديوان (مجموعات شعرية في مجلد واحد) (شعر)
* معسكرات الأبد (رواية)
* طيش الياقوت (شعر)
* الفلكيون في ثلثاء الموت : عبور البشروش (رواية)
* الفلكيون في ثلثاء الموت : الكون (رواية)

* الفلكيون في ثلثاء الموت : كبد ميلاؤس (رواية)
* المجابهات ؛ المواثيق الأجران ؛ التصاريف ، وغيرها (شعر)
* أنقاض الأزل الثاني (رواية)
* الأقراباذين (مقالات في علوم النَّظر)
* المثاقيل (شعر)
* الأختام والسديم (رواية)
* دلشاد (فراسخ الخلود المهجورة) (رواية)
* كهوف هَايْدْرَاهُوْدَاهُوْس (رواية)
* المعجم (شعر)
* ثَادْرِيْمِيْسْ (رواية)

* الفلكيون في ثلثاء الموت : كبد ميلاؤس (رواية)
* المجابهات ؛ المواثيق الأجران ؛ التصاريف ، وغيرها (شعر)
* أنقاض الأزل الثاني (رواية)
* الأقراباذين (مقالات في علوم النَّظر)
* المثاقيل (شعر)
* الأختام والسديم (رواية)
* دلشاد (فراسخ الخلود المهجورة) (رواية)
* كهوف هَايْدْرَاهُوْدَاهُوْس (رواية)
* المعجم (شعر)
* ثَادْرِيْمِيْسْ (رواية)

N O V I C E D E A D

رواية
NOVEL

موتى مبتدئون

كل شيء افتراض
حين يكون الموتى مبتدئين

Every thing is assumed,
If the dead are novice.

ISBN 9953-36-828-7

